

جان بودريار

أمريكا

ترجمة : أحمد حسان

هذه ترجمة كاملة لكتاب Amérique

تأليف Jean Baudrillard

الصادر فى سلسلة Le livre de poche

عن دار نشر Grasset

عام 1986

المحتويات

مقدمة

Vanishing point

نيويورك

أمريكا الكوكبية

اليوتوبيا المتحققة

نهاية القوة؟

Desert for ever

الهوامش

مقدمة

ربما كانت رحلة بودريار الفكرية مؤشرا ساطعا على التحول العميق الذى شهده تاريخ الأفكار فى النصف الثانى من القرن العشرين، رغم أنها ترسم، فى نفس الوقت، مسارا فرديا شديد التميز والخصوصية.

شقت هذه الرحلة طريقا وعرا ومحفوفا بالمخاطر، من اليقين والبحث عن معنى، الى تفويض كل معنى، من الراديكالية الى ما يشبه العدمية. ولم تأت استجابة بسيطة لموضوعة فكرية، بل نتيجة بحث مضمّن فى الأسس التى أحدثت التحول العام فى المناخ الفكرى الغربى - ومن ثم العالمى - لكنها أوصلته فى نهاية المطاف الى وضع يستعصى على التصنيف البسيط، ويجلب كل أشكال سوء الفهم.

ولد بودريار (29 يوليو 1929 - 6 مارس 2007) لأسرة ريفية انتقلت الى العيش فى المدينة وكان أول شخص فيها يذهب الى الجامعة. لم يسلك مسارا أكاديميا قياسيا بدخول مدرسة المعلمين العليا، لكنه درس الألمانية وعمل معلما لها حتى تقدم برسالة فى علم الاجتماع. ووصل متأخرا نسبيا للتدريس فى الجامعة وقام بالتدريس فى جامعة نانثير لعشرين عاما قبل أن ينسحب.

تأثر بماركسية سارتر الوجودية ونشر مراجعات أدبية فى "الأزمة الحديثة". قرض الشعر وأنجز ترجمات أدبية لبريشت، وبيتر فايس وشارك فى ترجمة "الإيديولوجيا الألمانية" لماركس وإنجلز لكن نيتشه مارس عليه تأثيرا عميقا. أنجز رسالة الدكتوراه تحت إشراف هنرى لوفافر، عمدة الماركسية الفرنسية حينذاك، لكنه انتقل للعمل مع رولان بارت، رائد التفكيكية. اعتبر نفسه محظوظا لأنه شهد الجو الاستثنائى فى جامعة نانثير فى الستينات والسبعينات. والتقى فى هذا الجو بالأفكار الراديكالية والفوضوية للمواقفيين situationnistes، وشهد أحداث 1968. شملت اهتماماته علم النفس، والسيميولوجيا، ووسائل الإعلام ونظريات الاتصال، علاوة على علم الاجتماع والفلسفة.

ولابد أن هزيمة 1968 قد عمقت لديه، مثل الكثيرين من معاصريه، التشكك فى المقولات الماركسية الرسمية للييسار التقليدى التى بررت القمع فى بلدان الاشتراكية الفعلية، خصوصا مع وقوف الحزب الشيوعى الفرنسى موقف العداء من مظاهرات واعتصامات الطلبة والعمال فى كل فرنسا، كما أن ارتباطه بالأفكار الموافقية قد عمق من ريبته التى لازمته طوال حياته إزاء المثقفين و النزعة الثقافية، ودعمت ميله الى القطيعة والهامشية التى يقر بأنه يستمد منها طاقته.

انتقل من نظرية القيمة الماركسية الى التبادل الرمضى، ومن التبادل الرمضى الى المشابهة simulation، التى يعتبرها سمة محورية للعالم الراهن تضع نهاية للتاريخ، لأنها تتجه الى إلغاء كل معنى.

ورغم تبشيره في كتاباته الأخيرة باختفاء الواقع، واستحالة الفهم، وتعدّر القيام بأى نوع من التدخل السياسى، تحتفظ كتاباته بجاذبية قوية، لا تنشأ من إعلان الانتصار النهائى للاستعراض spectacle، بالمعنى المواقفى situationniste، بل من محافظته طول الوقت على نزعة نقدية لا تقدم تنازلات للامتنالية التى تسود العلوم الاجتماعية ما بعد الحداثية.

إنه، مع إعلان استحالة المعارضة والنقد، مازال يصر على نوع من التناقض فى عمله ذاته. وكل تأكيده على المصفوفات الكاسحة من أنساق الصور، والمعلومات، والاتصال، فى المجتمع الحديث، يأتى كمحاولة للاستغناء عن استعارات الانتاج التى ميزت الفلسفة الماركسية والكثير من الفلسفات ما بعد البنيوية. ومقابل الانتاج، يضع بودريار مفهوم الإغواء. الانتاج يجعل الأشياء مرئية، واقعية، ذات معنى، وذات غرض، بينما يدخل الإغواء الى اللعبة فى اللحظة التى يتم فيها الانتاج - المفرط للمعانى والأحداث وسط دوائر متسارعة من الصورة، والرسالة، والتمثيل، الى الحد الذى يجعلها تختفى.

يرى أن الوعى ما بعد الحداثى، بعد أن أغراه الوجود الكلى للصور باعتقاد أن الواقعى ما زال موجودا، ترك بعدها وحيدا فى عالم قد تبخر منه كل حس بالواقع. وفى مواجهة الإغواء نقدم نحن الرغبة، ولا نسعى الى الفهم، بل الى النشوة، الى الدوار.

اعتبر أن مهمته تتلخص فى الملاحظة والتوصيل. لكن الملاحظة لم تعد تعنى اختراق الاسطح للإمسك بجوهر خفى، بل تتبّع مسار العلامات المبعثرة مثلما تتبّع دَوّارة الريح اتجاه الريح. ولم يعد التوصيل يعنى معارضة الإغواء وغياب العمق باليوتوبيا، بل الحديث بلسان الإغواء وغياب العمق.

لكن من الضرورى التأكيد على أنه لا يفعل ذلك بقبول هادىء وهانىء بانتصار الاستعراض، بل كمن يرغب فى دفع التناقضات الى نهايتها لتنفجر. إنه يتحدث كأنه مقيّد الى صارى سفينة المجتمع التى تتقاذفها الأمواج. لا يمكنه تغيير اتجاهها فلا يتبقى أمامه سوى إعلان الكارثة المحدقة. يدعو الى اللامبالاة والاستراتيجيات القدرية: "إذا كان العالم قَدْرِيَا، فلنكن قَدْرِيَيْن أكثر منه. وإذا كان لامباليا، فلنكن أكثر لامبالاة. لابد أن نهزم العالم ونغويه من خلال لامبالاةٍ معادلةٍ على الأقل للامبالاة العالم". هذه اللامبالاة هى "استراتيجية مضادة صريحة وإيجابية" تتيح للمرء أن يظل نقديا.

فبينما يعلن أن النظام الذى تم فرضه على العالم قد التهم كل شىء، ولا يمكننا عمل شىء لأننا لم يعد بإمكاننا أن نحلم بشىء خارجه، يؤكد أن هذا النظام سيمضى بالبشر وبالكوكب الى الكارثة. وإذا لم يكن البديل ممكنا، فلا أقل من أن نعلق آمالنا على وصول تناقضاته الى أقصى مداها. مازلنا نستشعر التوجس من عواقب الانخراط فى هذا العالم الذى "لم تعد فيه أى تعريفات ممكنة"، الذى يسبح فى فقدان الذاكرة، والهدف، والمعنى، وليس للجماهير فيه "تاريخ، ولا معنى، ولا وعى، ولا رغبة"، الذى "يبرد فيه التاريخ، يتباطأ، تتبع الأحداث بعضها وتتلاشى فى لامبالاة...".

وهذا الموقف المركب يؤدى به الى أسلوب جياش، شعري، استفزازى، متضارب المشاعر، متهمك على ذاته، ويستعصى على الامتثال.

وقد تلقفت الكتابات الأنجلوسكسونية المفاهيم التي يرددها بودريار عن اختفاء الواقع واستحالة الفهم لتختزله الى مرتبة الممثل الأكبر لما بعد الحداثة. الأمر الذي نفاه هو فى مناسبات عديدة .

لكننا نعتقد، ضد هذا الاختزال، أن الأكثر اتساقا مع مساره والقضايا التي يطرحها، والتوجه واللغة التي يتناولها بها، أن نعتبره مواقف دفعته هزيمة أكبر حركة احتجاج مدنى عام 1968 الى التعمق فى دراسة المجتمع ليصل الى أن التغيرات الحاسمة التي تطرأ على بنيته تسبق بكثير تحليلات منتقديه، بحيث تقطع الطريق أمام من يأملون فى إحداث تغيير جذرى فى اتجاه تطوره.

ويعترف بودريار بدينه وارتباطه بالنظرية المواقفية حتى وهو يتخلى عن الأطروحات المواقفية : "لقد كنت منجذبا جداً، جداً بالمواقفية"، و"حتى إذا كانت المواقفية قد أصبحت اليوم ماضياً، فما زال هناك نوعٌ من الجذرية ظللت مخلصاً له دائماً. مازال هناك نوع من الهاجس، نوع من الثقافة المضادة، ما زال موجوداً. شىء بقى معى حقاً".

وبالفعل، ظلت القضايا المواقفية والتمرد المُميّز ل طرحها مع الحس الحاد بالمعارضة والهامشية ملازمين لبودريار حتى النهاية.

إذا كان ديبور G. Debord قد شجب تباعد العالم وتحوّله الى استعراض يراقب فيه الإنسان مصيره كمتفرج لا حيلة له. فإن هذا التباعد كان مفهوماً على أساس الاستلاب الذي يمكن التغلب عليه بفعل ثورى.

صحيح أن ديبور، فى "التعليقات على مجتمع الاستعراض"، قد تخلى عن تمييزه المبكر بين الأشكال المركزة والأشكال المشتتة للتنظيم الاستعراضى لصالح مقولة وحيدة: هى الاستعراض المتكامل، الذى "لم يعد قابلاً للإصلاح من الناحية الأساسية". "حتى عام 1968، كان المجتمع الحديث مقتنعاً بأنه محبوب. ومنذ ذلك الحين، توجّب عليه أن يتخلى عن هذه الأحلام، إنه يفضل أن يكون مرهوباً. إنه يعرف جيداً أن طابعه البريء قد انقضى الى الأبد".

فى افتراق ملحوظ عن التفاؤل الثورى لكتاب "مجتمع الاستعراض"، يلاحظ ديبور أن الاستعراض، بامتلاكه لكل الوسائل الضرورية لترتيب مجمل الإنتاج والإدراك، هو السيد المطلق للذاكرات، مثلما هو السيد المطلق للعنان للخطط التي ستشكل المستقبل الأشد بعداً.

وخطابه "يعزل كل ما يعرضه عن سياقه، وعن ماضيه، وعن مقاصده وعواقبه، وهكذا فإنه لا منطقي تماماً، وحيث أن أحداً لن يناقضه، فإن له الحق فى أن يناقض نفسه، فى أن يصحح ماضيه ذاته".

يبدو إذن أن التعارض الجوهرى بين الواقعى وبين الاستعراض قد ضاع الى الأبد، غرق فى فيض من الصور "يكتسح فى طريقه كل شىء".

لكن ديبور مازال يصر على أن فهم ترسخ المجتمع الاستعراضى أمر حيوى، لسبب وحيد هو أنه "فى ظل تلك الظروف سوف تُخاض المرحلة التالية من النزاع الاجتماعى حتى نهايته".

والفرق أن بودريار يصّر على أن الواقع قد اختفى وأن صراع الذات ضد عالم الموضوعات قد انعكس أخيراً كنتيجة لتاريخه ذاته، بفعل تقلّب بسيط للأقدار: "إن استراتيجيتنا البالغة الجمال للتاريخ، والمعرفة، والسلطة تمحو نفسها، وليس ذلك لأنها قد أخفقت (فربما نجحت أفضل مما ينبغي) بل لأنها قد بلغت في تقدمها طريقاً مسدوداً انعكست عنده طاقتها فالتهمت نفسها، مفسحة المجال لشكل خالص وفارغ، أو جنوني ونشوان".

العالم متطابق مع الاستعراض الواقعي، كلاهما مجال قد انزلق فيه بعيداً ما هو واقعي وما له معنى، بين اختلاط من العلامات، والصور، والمشابهات، والتبديلات. وبودريار قانع بأن يأخذ العالم بقيمته الظاهرية، مزيحاً كل معنى يمكن به اعتباره عكساً للواقعي. لا بد من تصديق الاستعراض، فلم تعد التوسّطات تقف بين الذات وبين العالم، بل إنها تطوّق كل معنى وواقع.

لم يعد يكفي الحديث عن الاستعراض؛ الوسيط الذي يمثل الواقعي ويقدم له خلفية مسرحية أو توسّطاً. فلغة الاستعراض، والمسرح، والمشهد، ما زالت تستدعي حساً بواقع كامن، بعالم من المعنى يجري بعد ذلك تمثيله وجلبه إلى مجال المعنى. هذا المنظور، بالنسبة لبودريار، هو مجرد خطوة على طريق يقود إلى الحقبة ما بعد الحداثيّة التي يكون فيها المشهد هو كل ما هناك حقاً وأخيراً. ففي اللحظة التي تجعل فيها الصورة الواقعي يختفي، نكون قد قمنا بقفزة لا رجعة فيها فوق حاجز المشابهة الذي لا عودة منه. ولا يعود ممكناً البحث عن الواقعي تحت تلاعبات وتشويهاات الصورة والمتبدّي: فالواقع ومجمل المعاني الاجتماعية، والسياسية، والتاريخية المعتمدة عليه تنهار فوق نفسها في اختفاء انطماري implosive.

وفي غياب أي مرجع للمعنى والواقع يمكن ابتداءً منه تمييز العالم الاستعراضي للمشاهد والتبديلات، تصبح مقولتنا الاستعراض والمشهد عتيقتين:

"في البدء كان السر، وكان هذا قاعدة لعبة التبدي. ثم جاء المكبوت، وكان هذا قاعدة لعبة العمق، وأخيراً يأتي الفاحش، وكان هذا قاعدة لعبة عالم بلا تبدٍ ولا عمق. كونٍ شفاف". هكذا عشنا مجتمع الاستهلاك تحت علامة الاستلاب، بوصفه مجتمع الاستعراض، لكن الاستعراض مازال مجرد استعراض، وليس فاحشاً أبداً". ولا يكون من الضروري الحديث عن الفاحش إلا "عندما لا يعود ثمة مشهد، عندما يصبح كل شيء شفافاً على نحوٍ لا يرحم. عندما يمكن أخيراً أن نقول: إننا لم نعد نحيا دراما الاستلاب، نحن في نشوة الاتصال".

هذه الدائرية، التي تتخرط فيها الصورة في عودٍ أبدى على نفسها، لا تحدد فقط نهايات الواقع، والمعنى، والتاريخ، بل تعني كذلك استحالة الفكر النقدي وكل انخراط سياسي. إذ لم يعد التمييز ممكناً بين الواقعي والظاهري، بين الحقيقي والزائف.

التمثيلات تغوينا لنؤمن بواقع اختفى منذ زمن طويل. ويمضي بودريار إلى حد الزعم بأن تمثيل وسائل الإعلام يمنح الأحداث والخبرات قوة لم تعد تحملها في ذاتها ويؤبّد في نفس الوقت إيماننا بضرورة وجود شيء وراء التمثيل - حدث واقعي، أو لحظة صادقة، أو تعبير أصيل، أو خبرة ذات معنى - تحوّل في وقت لاحق فقط إلى الوجود الاستعراضي الذي لا يبدو أن أي شيء قادر على الإفلات منه.

و ضد الحكمة الشائعة، يصر بودريار على أن وسائل الإعلام تفرض دوافع العقل ، والتواصل، والمعنى ، والواقع على جمهور لا يعبأ بشيء "يتم إعطاؤه معنى، لكنه يريد استعراضاً". يفضل كرة القدم على السياسة. الجماهير تلوذ بسليبتها ولا يجرى التلاعب بها ولا توريطها. وإزاء لامبالاتها، أصبح إنتاج الطلب على المعنى مهمة حاسمة للنظام.

الخلاف بين مساندة بودريار للسطحية وبين المنظور المواقفي يدور إذن حول مسألة ما إذا كانت الأوهام التي يفرزها الاستعراض قد صارت الآن أكثر واقعية من الواقع الذي كانت تخفيه ذات حين، أم أنها، مع ديبور، ما زالت أوهاما يجب نزع النقاب عنها. هل يظل العالم الحديث قابلاً للنفي، أم أن إنكار الاستعراض للتاريخ قد تحول ليصبح نهاية حقيقية للتاريخ؟. يبدو أن ما فوق الواقع عند بودريار ينتظر عند آخر منعطف لديبور بوصفه أفقا لا يمكن تجنبه، سوف يقابل عنده الاستعراض صورته الخاصة ذات يوم .

وفى سياحته الأمريكية، يذهلنا التوتر الذى يطبع تصويره للمجتمع الذى ترى فيه البشرية مستقبلها. ينظر الى أمريكا "فى فضائها، ورقبها التكنولوجى، وضميرها المستريح الفظ" باعتبارها "المجتمع البدائى الوحيد الراهن"، لا يفصل تطوره عن إبادة الهنود ولا عن تعصب الطوائف الدينية الأصولية التى بنت أمريكا. لكنها بدائية اتخذت طابعا "مبالغا فيه ولا إنسانيا لكون قد تجاوزنا، ويتخطى بكثير مبرره الأخلاقى، أو الاجتماعى، أو البيئى". ويختلط إعجابه الواضح بفضاءاتها وتفصيلها اليومية بالإصرار على أنها، فى آن واحد، "اليوتوبيا المتحققة" للثقافة الأوروبية ، والكارثة المستقبلية والمكتملة لكل ما هو إجتماعى. كارثة تعلن عنها الصحراء، التى هى الشكل المصقى للتصحّر الاجتماعى.

ورغم اندراج "أمريكا" وكذلك "cool memories" ضمن سياق النقد الأوروبى لأمريكا من اليمين واليسار، الذى يتهمها تقليديا بالسذاجة، والتبسيط، والبلاهة النظرية، فإن بودريار يبتعد عن أى نقد تبسيطى للقيم الأمريكية ويحذّر المثقفين الأمريكيين من النظرة الحنينية الى أوروبا، وتاريخها، وميتافيزيقاها. فمشكلة أمريكا هى أزمة "يوتوبيا متحققة" فى مواجهة دوامها واستمرارها، فيما تتمثل مشكلة أوروبا فى إخفاق مثنها العليا الثورية: الديموقراطية، والحرية، والعقل.

لكن لغة الكتاب هى الرافعة الكبرى التى يحاول من خلالها النص أن ينقل حسا بالواقع الأمريكى. فالكتاب يأخذ شكل رحلة بلا هدف ولا نهاية، يتطلع خلالها الكاتب من زجاج السيارة أو مرآتها الخلفية، مثل شاشة تلفزيون، ويتسلى وينفعل بالوميض المتتابع للمشاهد والمناظر الطبيعية.

ويتشكل النص من شذرات متجاورة تناظر تشظى ثقافة البوب، وتمتلىء بالعبارات الجكمية التى تشبه الأقوال المأثورة، ليس من الضرورى قراءتها بترتيب معين، بل كيفما اتفق، مثلما يتنقل مشاهد التلفزيون بشكل عشوائى بين القنوات. "بحث فى سرعة السيناريو، فى الانعكاس اللامبالى للتلفزيون، فى فيلم الأيام والليالى المعروض عبر فضاء خاوي، فى التتابع المدهش فى انعدام تأثيره للعلامات، والصور، والوجوه، والأفعال الطقسية على الطريق". القيادة "شكل رائع من فقدان الذاكرة. كل شيء قيد الاكتشاف، وكل شيء قيد المحو".

يمكن قراءة الرحلة باعتبارها شعرية لصورة الشاشة. وعبره لأمريكا يأتي على طريقة جاك كيرواك وجيل الهيبي، وليس على صهوة حصان، مثل توكفيل. وتملاً شعريته الفجوة بين النظرية وبين الواقع بأن تلقى بظلمها على الحلم الأمريكي أو توازيه.

الأسلوب، أو الشكل، هو كل شيء. بينما يتم بناء الرسالة بالتكرار في تفجر تراكمي للمعنى، في تلاحق للمجازات والمبالغات.

تحاول المبالغات المفرطة أن تجعل من نفسها المعادل الأدبي لهذا الواقع - المفرط. وتفعل فعلها بتجاوز كل المواضيع والفهم المشترك، مستهدفةً أن تحدث صدمة، لا أن تؤخذ حرفياً.

أما القول المأثور فيكثف المعنى في شكل موجز مصاغ ببراعة، لكنه بتغليب الشكل على المضمون يهدد على الدوام بالانزلاق إلى اللامعنى، لأن شكله يوحى بإمكانية قلب المعنى. ويجد البعض في تشوش الأقوال المأثورة مشابهة مكتملة لتشوش المجتمع.

كذلك يستخدم بودريار كلمة "باروكي" لوصف المجتمع الحديث. ديزني لاند هي مثال على "منطق باروكي خالص"، وحرب فيتنام "لم تحدث أبداً، ربما كانت حلماً، حلماً باروكياً عن النابالم والمداريات"، وربما يشير ذلك إلى توازنٍ بين نقد بودريار للحادثة الآن، وبين الهجوم الباروكي على الحادثة الرأسمالية البيوريتانية في بداياتها.

ومن هنا، ربما كان من المناسب أن نقترح توازياً بين أسلوب بودريار وبين الانبهار الباروكي بنص مشوش من مجموعة من الأقوال المأثورة الذكية، حيث يدمر كل قول مأثور الصديق بأن يرفع الشكل فوق المضمون.

إن بودريار لا يحلل هذا البلد بالطرق التقليدية للسوسيولوجيا أو العلم السياسي، بل يحقق ذلك أسلوبياً في المقام الأول. وإذا كان عمله يأتي في سياق ما بعد الماركسية، فيجب النظر إليه كذلك باعتباره مساهمة في جهود إعادة تعريف أمريكا في سياق التراجع المتزايد لنفوذها، بعد انتهاء الحفل الماجن للقوة والهيمنة الأمريكيتين.

أحمد حسان

** **

VANISHING POINT

*Caution: objects in this mirror may be closer than they appear!***

نوستالجيا تولّدها ضخامة تلال تكساس وسلاسل جبال نيو مكسيكو : إنحداراتٌ حادة على الطريق السريع، واسطواناتٌ رائجة على جهاز ستيريو السيارة الكريزلر، وموجة حرارة. اللقطات الفوتوغرافية لم تعد تكفى. إذ يجب أن يكون لدينا فيلم الرحلة بكامله، بالزمن الفعلى، بما فى ذلك الحرارة التى لا تُحتمل والموسيقى، وأن نعيدَ عرضه برمّته من أوله الى آخره فى المنزل، فى غرفة مظلمة، ونعيد اكتشاف سحر الطريق السريع والمسافة، سحر الكحول المتلّج فى الصحراء والسرعة، ونحيا هذا كله من جديد على الفيديو فى المنزل، بالزمن الفعلى - ليس لمجرد لذة التذكّر، بل لأن انبهار التكرار بلا معنى موجودٌ فعلاً، فى تجريد الرحلة. فانبساط الصحراء قريبٌ بشكلٍ لانهاى من لا زمنية الفيلم.

*

سان أنطونيو SAN ANTONIO

المكسيكيون، الذين أصبحوا تشيكانو(1)، يقومون بدور المرشدين خلال زيارة إل آلامو El Alamo ليمجدوا أبطال الأمة الأمريكية الذين ذبحهم بكل جسارة أسلافهم هم أنفسهم. ورغم كل البسالة التى حارب بها هؤلاء الأسلاف، فإنهم لم يفلتوا من تقسيم العمل، فالיום نجد أحفادهم وأبناء أحفادهم هنا، فى نفس موقع المعركة، ليمجدوا الأمريكيين الذين سرقوا أرضهم. التاريخ مُفعّم بحيل الدهاء. وكذلك المكسيكيون، الذين عبروا الحدود سراً ليأتوا ويعملوا هنا.

*

صولت ليك سیتی SALT LAKE CITY

سيمترية مرمونية متباهية. مرمر فى كل مكان: مُتَقَنّ وجنائزى (الكابيتول، أرغن مركز الزوّار). ومع ذلك أيضاً، حادثة على طريقة لوس أنجلوس - كل المستحدثات gadgets اللازمة لراحة متقشقة، من الفضاء الخارجى. القبة التى يعلوها المسيح (كل تماثيل المسيح هنا تشبه بيورن بوج Björn Borg، لأنها منسوخة من مسيح ثورفالدسن Thorwaldsen) خارجة لتوها من فيلم Close Encounters وتنتمى الى نوع اللقاءات مع المخلوقات الفضائية : الديانة وقد تحولت إلى مؤثرات خاصة. والمدينة بأسرها، فى الحقيقة، تتمتع بشفافية ونظافة متجاوزة للبشر، من عالم آخر، لشيء قادم من البعيد. تجريد سيمترى، متألئء، مُسيطر. يغنى عصفور - ساعة إلكترونى عند التقاطعات، فى كل منطقة المظلة، التى تتشكل من الورد والمرمر ، والتسويق الإنجلى - هوس وسواسى بيوريتانى مذهب فى هذه الحرارة وفى قلب الصحراء، قرب هذه البحيرة ذات الماء الثقيل، المتجاوزة للواقع هى الأخرى بسبب فرط كثافة الملح. وفيما وراء البحيرة، صحراء صولت ليك الكبرى، حيث توجب اختراع سرعة نماذج السيارات التجريبية لترويض الأفقية المطلقة. . . لكن المدينة، ذاتها، مثل جوهرة، بنقاء هوائها ومنظوراتها الحضرية الجسورة الانحدار، الأجل حتى من منظورات لوس أنجلوس. ياله من بهاء مذهب وصدق حديث لأولئك المورمون، هؤلاء المصرفيين الأثرياء، والموسيقين، وخبراء الأنساب الدوليين، أنصار تعدد الزوجات (تذكرنا ناطحة سحاب الإمباير ستيت فى نيويورك بشيء من هذه البيوريتانية الجنائزية مرفوعة الى أقصى درجة). إن الكيرياء الرأسمالى، العابر للجنس، لأناس متحولين هو ما يشكل سحر هذه المدينة، المقابل والمضاد لسحر لاس فيجاس، تلك العاهرة الكبرى على الجانب الآخر من الصحراء.

*

مونيومنت فالى MONUMENT VALLEY

ديد هورس پوينت DEAD HORSE POINT

جراند كانيون GRAND CANYON

صرحية جيولوجية، ومن ثم ميتافيزيقية، على نقيض الارتفاع الفيزيقي للتضاريس المألوفة. تضاريس معكوسة، نحتتها عميقاً الريح، والماء، والثلج، تجرّجرك لتسقط فى دوامة الزمن، فى الأبدية التفصيلية لكارثة بالحركة البطيئة. إن نفس فكرة ملايين ومئات الملايين من السنين التى تطالبها إفساد سطح الأرض هنا بهدوء هى فكرة شاذة، لأنها تبعث معها استشعاراً لعلامات نشأت، قبل ظهور الإنسان بزمان طويل، نتيجة حلف للبلى والتآكل مُبرم بين العناصر. وسط هذا التكس الهائل للعلامات، ذات الجوهر الجيولوجى الخالص، لن يكون الإنسان قد وُجد عبثاً. فالهنود وحدهم ربما فسروا قدراً ضئيلاً منها. ورغم ذلك، فإنها علامات. إذ أن جذب الصحراء ليس سوى مظهر. وكل أراضى هنود الناباخو، الهضبة الممتدة التى تتجه صوب جراند كانيون، والجروف التى تشرف على وادى مونيومنت فالى، والوهاد السحيقة لنهر جرين ريفر، كل هذه

الأراضى تنبض بحضورٍ سحري، لا علاقة له بالطبيعة (ربما كان سر هذه الأراضى برمتها أنها كانت ذات مرة تضاريساً تحت الماء، وأنها احتفظت بسوريالية تضاريس قاع محيطٍ في الهواء الطلق). ومن المفهوم أن الأمر تطلب من الهنود قدراً كبيراً من السحر، وديانةً بالغة القسوة، لترويض تلك الضخامة النظرية التي يمثلها الحدث الجيولوجي والسماوى للصحراء، وللعيش على مقاس مثل تلك الخلفية. ما قيمة الإنسان إذا كان للعلامات السابقة عليه كل هذه القوة ؟ لابد لأى جنسٍ بشرى من اختراع تضحياتٍ مُعادلةٍ لنوع الكوارث الأرضية الطبيعية المحيط به.

ربما كانت هذه التضاريس، لأنها لم تعد طبيعية، هي التى تعطى أفضل فكرة عن ماهية أى ثقافة. مونيومنت قالى: كتلٌ من اللغة تنتصب شامخةً بغتةً، ثم تخضع لتآكلٍ لا هوادة فيه، ترسيباتٌ غابرة تدين للبلى بعمقها المستعرض (المعنى يولد من تآكل الكلمات، الدلالات تولد من تآكل العلامات)، ومنذورةٌ لأن تصبح اليوم، مثل كل ثقافةٍ، محمياتٍ طبيعية.

صولت ليك سیتی: ملتقى أرشيفات الأنساب العالمية، تحت إدارة المورمون، أولئك الفاتحين المرفَّهين والبيوريتانيين، فى أعماق كهوف الصحراء، وبمحاذاة مضمار بونفيل، على السطح الذى لا تشوبه شائبة لصحراء صولت ليك الملحية الكبرى، حيث تحقّق نماذج السيارات التجريبية أكبر سرعاتٍ فى العالم. التوالد من الأسلاف بوصفه عمقاً فى الزمن، وسرعة الصوت بوصفها سطحيةً خالصة.

آلاموجوردو ALAMOGORDO: أول اختبار للقنبلة الذرية على خلفية وايت ساندز White Sands، خلفية زرقاء شاحبة من الجبال ومن مئات الأميال من الرمل الأبيض - ضوء القنبلة الصناعى المُعشى للبصر مقابل ضوء الشمس المُعشى للبصر.

تورّى كانيون TORREY CANYON: معهد سولك Salk institute ، محراب الحمض النووى وكل الفائزين بجوائز نوبل فى البيولوجيا. هناك حيث يتم ابتكار كل وصايا المستقبل البيولوجية، داخل هذا المعمار المنسوخ من قصر الملك مينوس، من الرخام الأبيض فى مواجهة اتساع المحيط الباسيفيكي. . .

مواقعٌ أشد إدهاشاً من غيرها، مواطن بارزة للاختلاق fiction المتحقق. مواقع متساميةٌ وعابرةٌ للسياسة من الفضاء الخارجى، تجمع بين ضخامة الأرض الجيولوجية التى لم تُمسّ وبين تكنولوجيا راقية، نووية، ومدارية، ومعلوماتية.

*

بحثتُ عن أمريكا الكوكبية *siderale* ، أمريكا الحرية العبيثة والمطلق للطرق السريعة *freeways* ، وليس أمريكا الاجتماعية والثقافية – أمريكا السرعة الصحراوية، والموتيلات، وأسطح الجمادات، وليس أمريكا العميقة ذات العادات والعقليات. بحثت في سرعة السيناريو، في الانعكاس اللامبالي للتلفزيون، في فيلم الأيام والليالي المعروض عبر فضاءٍ خاوي، في التتابع المدهش بلا عاطفةٍ للعلامات، والصور، والوجوه، والأفعال الطقسية على الطريق، بحثت عما هو أقرب ما يكون من العالم النووي *nucléaire* و المستأصل *énucléé* الذي يُفترض أنه عالمنا، حتى في أكواخه الأوروبية.

بحثتُ عن الكارثة المستقبلية و المكملة لما هو اجتماعي في الجيولوجيا، في هذا الانقلاب للعمق الذي تشهد عليه الفضاءات المُحرّزة، وتضاريس الملح والصخر، والأخاديد التي يتدفق بينها نهرٌ رسوبي، والهوة الغابرة للبطء التي يمثلها التآكل و الجيولوجيا، وحتى في رأسية المدن الكبرى.

كنتُ أعرف كلَّ شيءٍ عن هذا الشكل النووي، عن هذه الكارثة المستقبلية، منذ أن كنتُ في باريس. لكن من أجل فهم ذلك، لابد أن يشرع المرء في السفر، الذي يحقق ما يسميه فيريلو *Virilio* باسم جماليات التلاشي.

إذ أن الشكل الذهني للصحراء يتمدد أمام عينيك، وهو الشكل المُصقَّى للتصحّر الاجتماعي. يجد الاستياء صورته المُصفاة في جذب السرعة. وكل ما هو باردٌ وميَّت في التصحر أو الاستئصال الاجتماعي يجد هنا، في حرارة الصحراء، صورته التأملية. هنا، في الامتداد الأفقي للصحراء، في مفارقة الجيولوجيا، يجد ما هو عابرٌ للسياسة فضاءه النوعي والذهني. ولا إنسانية عالمنا اللاحق، اللا-اجتماعي، والسطحي، تجد هنا على الفور شكلها الجمالي وشكلها النشواني. فليست الصحراء سوى هذا: نقدٌ نشوانيٌ للثقافة، شكلٌ نشوانيٌ للتلاشي.

*

إن عظمة الصحاري تكمن في كونها، في جفافها، بمثابة الصورة السالبة لسطح الأرض و لأخلاقنا(2) *humeurs* المتحضرة. إنها أماكن تتخلخل فيها الأخلاط والسوائل، ويكون فيها الهواء من النقاء بحيث يهبط تأثير الكواكب من المجرات مباشرة. لقد توجب أن يُباد الهنود حتى تتبدى للعيان مرحلةٌ أسبق وأضخم من مرحلة الأنثروبولوجيا: علم فلزات *minéralogie*، جيولوجيا، كوكبية، وقائية لا-إنسانية، جفافٌ يطرد الوسواس المصطنعة للثقافة، صمتٌ لا يوجد في أي مكانٍ آخر.

صمت الصحراء هو شيءٌ بصريٌّ أيضاً. فهو نتاج اتساع النظرة التي لا تجد في أي مكانٍ شيئاً يعكسها. في الجبال، لا يمكن أن يوجد الصمت، لأن تضاريسها تُصمُّ الأذان. وحتى يوجد الصمت، يجب أن يكتسب الزمنُ أيضاً نوعاً من الأفقية، ألا يكون ثمة صدى للزمن في المستقبل ، ألا يكون ثمة سوى انزلاق الطبقات الجيولوجية فوق بعضها البعض، وألا ينبعث عنها سوى نوعٍ من الجلبة الرسوبية.

الصحراء: شبكة متألئة ورسوبية من ذكاء لا-إنساني، من لا مبالاة جذرية – ليست لا مبالاة السماء وحدها، بل كذلك لا مبالاة التماوجات الجيولوجية، حيث لا تتبلور سوى العواطف الميتافيزيقية للفضاء والزمن. هنا تنقلب رأساً على عقب شروط الرغبة، كل يوم، ويبعث بها الليل إلى العدم. لكن انتظر بزوغ الفجر، مع استيقاظ الضوضاء الرسوبية، والصمت الحيواني.

*

السرعة تخلق موضوعات (3) خالصة. وهي ذاتها موضوع خالص، حيث أنها تطمس الأرض والنقاط المرجعية المناطقية، حيث أنها ترتقي مسار الزمن كي تلغيه، حيث أنها تمضي أسرع من سببها ذاته وترتقي مساره كي تُبطله. السرعة هي انتصار النتيجة على السبب، انتصار اللحظة على الزمن بوصفه عمقاً، انتصار السطح والشيئية الخالصة على عمق الرغبة. السرعة تخلق فضاءً تكريسياً (4) *initiatiq* قد ينطوي على الموت، وقاعدته الوحيدة هي محو الآثار. إنها انتصار النسيان على الذاكرة، انتشاء غير مهذب، فاقد للذاكرة. إنها سطحية وقابلية انعكاس موضوع خالص في الهندسة الخالصة للصحراء. الاندفاع يخلق نوعاً من اللامنظورية، من الشفافية، من تقاطع الخواء مع الأشياء. إنه نوع من الانتحار بالحركة البطيئة، بإنهاك الأشكال – هو الشكل السار لتلاشيها. السرعة ليست نباتية، إنها أقرب إلى المعدن، إلى انكسار من خلال البلورة، وهي بالفعل موقع لكارثة، لتبديد الزمن. لكن ربما لم يكن إبهارها سوى إبهار الخواء، فليس ثمة إغواء هنا، إذ يتطلب الإغواء سراً. ليست السرعة سوى طقس تكريس الخواء: حنين إلى عودة الأشكال إلى السكون، يتخفى وراء تكثيف حراكها ذاته، ويمائل الحنين إلى الأشكال الحية الذي ينتاب الهندسة.

*

إلا أن ثمة تعارضاً عفيفاً هنا، في هذا البلد، بين التجريد المتزايد لكون نووي وبين حيوية أولية، أحشائية (5) *viscérale*، مطلقة العنان، تأتي لا من التجذر بل من انتزاع الجذور، حيوية تمثيل غذائي، في الجنس مثلما في العمل، في الأجساد مثلما في البيع والشراء. في العمق، فإن الولايات المتحدة، بفضائها، ورقيتها التكنولوجي، وضميرها المستريح اللفظ، وكذلك في الفضاءات التي تفتحها أمام المشابهة *simulation*، هي المجتمع البدائي الوحيد الراهن. والمدحش هو الارتحال عبره كما لو كان المجتمع البدائي للمستقبل، مجتمع التعقيد، والتهجين، والاختلاط المتنافر الأكبر، مجتمع طقس ضار، لكنه جميل في تنوعه السطحي، كما لو كان مجتمعاً مسكوناً بحقيقة ميتا-اجتماعية كلية ذات عواقب لا يمكن التنبؤ بها، تفتننا محايتها، لكنها دون ماضٍ نتأمله من خلاله، ومن ثم فإنه بدائي من الناحية الأساسية. . . . هذه البدائية تحولت إلى ذلك الطابع المبالغ فيه و اللاإنساني لكون قد تجاوزنا، ويتخطى بكثير ذات مبرره الأخلاقي، أو الاجتماعي، أو البيئي.

البيوريتانيون وحدهم هم الذين كان يمكنهم أن يبتكروا ويطوروا هذه الأخلاق البيئية والبيولوجية القائمة على الوقاية – وبالتالي على التمييز – والعنصرية بعمق في طبيعتها. كل شيء يتحول إلى محمية طبيعية مفرطة الحماية، تبلغ من الحماية حد أن الحديث يدور اليوم عن نزع تطبيع محمية يوسميت (6) *Yosemite* لإعادتها إلى الطبيعة، مثلما حدث مع محمية تاساداي

Tasaday فى الفلبين. هوس بيوريتانى بالأصول فى ذات المكان الذى لم تعد فيه أرض. هوس بالعثور على موضع ملائم، على اتصال، بالضبط حيث يجرى كل شىء فى لا مبالاة كوكبية.

*

ثمة نوع من المعجزة فى غثاثة الفراديس الاصطناعية، طالما حققت عظمة (لا)ثقافة كاملة. وفى أمريكا، يُضفى الفضاء حساً بالاتساع حتى على غثاثة الضواحي suburbs والمدن الكئيبة (7) funky towns. الصحراء فى كل مكان، وتحافظ على التفاهة. الصحراء، حيث تتكرر كل يوم معجزة السيارة، والتلج والويسكى : أعجوبة العيش الرغد ممتزجةً بقدرية الصحراء. معجزة الفحش، الأمريكى الأصل : معجزة شفافية كل الوظائف فى الفضاء، الذى يبقى رغم ذلك عصياً على سبر غوره ولا يمكن ترويضه إلا بالسرعة.

المعجزة الإيطالية : هى معجزة المسرح والمناظر.

المعجزة الأمريكية : هى معجزة الفحش.

بذخ الحواس ضد صحراوات التفاهة.

*

ماهو سحرى، هو الأشكال المتحوّلة. ليس الغابة البرية، النباتية، بل الغابة المتجّرة، التى تحوّلت الى جماد. إنه صحراء الملح، الأشد بياضاً من الجليد، والأشد أفقيةً من البحر. إنه تأثير الصرحية، والهندسة، والعمارة، حيث لم يجر تخطيط أى شىء أو تصميمه. كانيونز لاند canyonsland، سبليت ماونتين Split Mountain. أو العكس : التضاريس دون تضاريس، بلا شكل، لتلال الطين (مَد هيلز Mud Hills)، تضاريس قمرية، شبكية ورسوبية، ذات تموجات رتيبة، لقيعان بحيرات غابرة. الانبعاثة البيضاء لوايت ساندز White Sands. . . لابد من سوربالية العناصر هذه للقضاء على جمال الطبيعة الرائع، مثلما لابد من ميتافيزيقا السرعة هذه للقضاء على الجمال الطبيعى الرائع لمسار الرحلة.

فى الحقيقة، لا يتطور مفهوم رحلة دون هدف، ومن ثم دون نهاية، إلا تدريجياً. فأنا أرفض الجولات السياحية والرائعة الجمال، والأماكن الطريفة، وحتى المناظر الطبيعية (فلا يبقى سوى تجريدها، فى موشور القيط). لا شىء أبعد عن الارتحال الخالص من السياحة أو رحلات أوقات الفراغ. لذا فالأفضل القيام به فى الابتذال الشاسع للصحراوات أو فى ذلك الابتذال، الصحراوى أيضاً، للمدن الكبرى – دون أن يتم النظر إليها مطلقاً كأماكن للذة أو الثقافة، بل تلفزيونياً، باعتبارها مناظر scenery ، سيناريوهات. لذا فالأفضل القيام به فى الحرارة المفرطة، كشكلٍ تلذذٍ لانتزاع الجسد من بيئته déterritorialisation . فتسارع الجزينات فى الحرارة يؤدى الى فقدان غير محسوسٍ تقريباً للمعنى.

ليس ما يهم هو اكتشاف العادات المحلية، بل اكتشاف لا أخلاقية الفضاء الذى يجب الارتحال عبره. ما يهم هو هذه اللاأخلاقية، والمسافة الخالصة، والتخلص مما هو اجتماعى. هنا، فى أكثر

المجتمعات أخلاقية على الإطلاق، يكون الفضاء لأخلاقياً حقاً. هنا، فى أشد المجتمعات امتثالاً على الإطلاق، تكون الأبعاد لأخلاقية. وهذه اللاأخلاقية هى التى تجعل المسافة خفيفةً والرحلة لانهائيةً. هى ما يغسل العضلات من إنهاكها.

*

اندفاع السيارة شكلٌ رائعٌ من فقدان الذاكرة. كلُّ شىءٍ قيد الاكتشاف، وكلُّ شىءٍ قيد المحو. بالطبع، هناك الصدمة الأولية للصحراوات و الافتتان بكاليفورنيا، لكن حين ينقضى ذلك، يبدأ الوميض الثانى للرحلة، وميض المسافة المفرطة، التى لا مناص منها، وميض لانهائية الوجه والمسافات المجهولة، أو بعض التشكيلات الجيولوجية العجيبة، التى لا تشهد فى النهاية على أى إرادة إنسانية بينما تبقى صورة فوران الأرض على حالها. وليس ثمة أى استثناءات فى هذا النوع من الارتحال : فحين يتعثّر فى وجه معروفٍ، فى مشهدٍ طبيعىٍّ مألوفٍ، أو فى رسالةٍ قابلةٍ لفك رموزها، ينقشع السحر : يخضع سحرُ التلاشى فاقداً الذاكرة، والمتكشف، والتقاربى asymptotique، للشعور والسيميولوجيا الدنيوية.

يتميز هذا النوع من الارتحال بنوع خاص من الحَدَث، أو التنبيه العصبى، ومن ثم، بنمطٍ خاصٍ من الإنهاك. مثل اختلاج العضلات المشدودة من فرط الحرارة والسرعة، من فرط الأشياء المرئية، أو المقروءة، أو الأماكن التى تم عبورها، ونُسيت. وارتخاء الاختلاج العضلى للجسد المثقل فوق طاقته بالعلامات الفارغة، بالإيماءات الوظيفية، ببريق السماء المُعشى للبصر، وبالمسافات المُسرّمة، هو ارتخاءٌ شديد البطء. فجأةً، تصبح الأشياء خفيفة، بقدر ما تصبح الثقافة، ثقافتنا، أشد تخلّلاً. أما هذا الشكل الشبكي من الحضارة الذى اخترعه الأمريكيون، الشكل العابر éphémère والشديد القرب من نقطة الزوال، فيبدو بغتةً أنه الأشد ملاءمةً لاحتمال – مجرد احتمال – الحياة التى تترصدنا. الشكل الذى يسود الغرب الأمريكى، ويسود كلّ الثقافة الأمريكية دون شك، هو شكلٌ زلزالى : ثقافة جزيئية fractale، ثقافة فجوة interstitielle، وليدة صدع مع العالم القديم، ثقافة متعيّنة tactile، هشّة، نقالة، سطحية – يجب أن تتّبع قواعدها ذاتها كى تدرك كيف تعمل : إنزلاقٌ زلزالى، تكنولوجيايات لينة.

*

ما من سؤال لهذه الرحلة سوى هذا : إلى أى مدى يمكننا المضى فى إبادة المعنى، إلى أى مدى يمكننا التقدم فى الشكل الصحراوى بلا نقاطٍ مرجعيةٍ دون أن ننهار، بالطبع شريطة الحفاظ على السحر الباطنى للتلاشى؟ سؤالٌ نظرى يتجسّد هنا فى الشروط الموضوعية لرحلةٍ لم تعد رحلةً، ومن ثم تقتضى قاعدةً أساسية : ليكن هدفك هو نقطة اللاعودة. هذه هى المسألة برمتها. واللحظة الحاسمة هى تلك اللحظة، الفضة، التى تكشف أن الرحلة ليس لها نهاية، أنه لم يعد ثمة سبب يجعلها تبلغ نهايةً. ففيما وراء نقطةٍ معينة تكون الحركة ذاتها هى ما يتغير. الحركة التى تعبر الفضاء بإرادتها تتحول إلى امتصاصٍ من جانب الفضاء ذاته – نهاية المقاومة، نهاية مشهد الرحلة بوصفه كذلك (بالضبط مثلما لم يعد المحرك النفث طاقةً اختراقٍ للفضاء، بل يدفع ذاته بأن يخلق ألامه فراغاً يمتصه إلى الأمام، بدل أن يرتكز، مثلما فى النموذج التقليدى، على مقاومة الهواء). بهذه الطريقة يتم بلوغ نقطة الطرد المركزى centrifuge، المنحرفة عن

المركز excentrique، حيث تُنتج الحركة الفراغ الذى يمتصك داخله. ولحظة الدوار هذه هي أيضاً لحظة الانهيار المحتمل. ليس تماماً بسبب إنهاك المسافة والحرارة، إنهاك التقدم فى الصحراء المنظورة للفضاء، بل بسبب إنهاك التقدم الذى لا رجعة فيه فى صحراء الزمن.

(8) *To-morrow is the first day of the rest of your life.*

**** ****

نيويورك

مبعوثاً جويّاً للأغلبية الصامتة والاستراتيجيات القدرية، أقفز بخفة قط من مطار إلى آخر. الآن، غابات نيوهامبشاير المشتعلة، تُلقى انعكاساً عابراً في مرآة نيوانجلند. بالأمس، كانت الرقّة الرأسية لناطحات السحاب. وغداً، ستكون مينيابوليس ذات الاسم البالغ العذوبة، بتتابع حروفه المتحركة الناعمة، نصف-الإغريقية، نصف-الشايين(1)، التي تستحضر منظومة هندسية مُشعّة، على حافة رقائق الجليد، عند أفق العالم المأهول. . . متحدثاً عن صمت الجماهير وعن نهاية التاريخ، ألقى نظرة على اتساع والتماع البحيرة، التي تهبّ عليها ريحٌ قارصة، الى الشرق حيث يُخيّم الليل. تمر الطائرات، صامتةً مثل الريح، خلف زجاج نوافذ الفندق، وتبدأ أولى إعلانات النيون في التدحرج ببطءٍ فوق المدينة. ما أروعها، أمريكا ! في كل مكانٍ حولى، صيفٌ هندي، يُنذر اعتداله بالجليد. لكن أين هي العشرة آلاف بحيرة، الحلم الطوباوى بمدينة هيلينستية على حافة جبال روكي؟ مينيابوليس، مينيابوليس ! بعد الأناقة الأرستوقراطية والرقّة الأنثوية للصيف الهندي في ويسكونسين، لا تعدو مينيابوليس أن تكون تكّساً ريفياً دون ضوء، لا تنتظر سوى الشتاء والبرد الذي تزهو به، وسط صوامعها وأراضيها المخصّصة للصيد. لكن في جوف أمريكا العميقة هذه، هناك بار كومودور Comodore، أجمل آر ديكو(2) في العالم، حيث يقال أن فيتزجيرالد Fitzgerald كان يأتى للشراب كل مساء. أشرب هنا أنا أيضاً. وغداً، ستأخذنى الطائرة مباشرةً إلى الطرف المضاد، المضاد من حيث الضوء، والمساحة السطحية، والخليط العرقى، والجماليات، والسطوة، إلى المدينة وريثة كل المدن فى آن، وريثة أثينا، والإسكندرية، وبرسيبوليس : إلى نيويورك.

*

نيويورك

تتزايد هنا صفارات الإنذار، ليل نهار. السيارات أسرع، والإعلانات أعنف. الدعارة شاملة، وكذلك الضوء الكهربائى. واللعبة، كل الألعاب، تحتدم. الأمر دوماً هكذا حين يقترب المرء من مركز العالم. لكن الناس يبتسمون. بل انهم يبتسمون أكثر فأكثر. لكنهم لا يبتسمون لبعضهم ابداءً، بل لأنفسهم فقط على الدوام.

التنوع المُفرع للوجوه، تفرُّدها، وجميعها مشدودة في تعبيراتٍ لا تُصدَّق. الأقنعة التي كانت تمنحها الشيخوخة والموت في الثقافات الغابرة، يكتسبها الشباب هنا في سن العشرين، أو في سن الثانية عشرة. لكن المدينة أيضاً كذلك. فالجمال الذي لم تكن تكتسبه المدن إلا عبر قرون، حقَّقه نيويورك في خمسين عاماً.

سُحب الدخان، كأنها مُستحِمَّاتٍ يعقِصن شعورهن. قصَّات شعرٍ إفريقية، أو سابقةٍ على رافاييل (3). مبتذلة، ومتعددة الأعراق. مدينة فرعونية، تعجُّ بالمسلَّات والقمم المدبَّبة. والمباني المحيطة بحديقة سنترال پارك كأنها دعائمُ أقواسٍ – بفضلها تكتسب الحديقة هيئةً حديقةً معلَّقةً.

*

ليست السحب هي التي تشبه نُدف الصوف pommelés هنا، بل الأدمغة. فالسحب تطفو فوق المدينة مثل فصوص أمخاخ، تسوقها الريح. أما البشر، ففي رؤوسهم سحبٌ صوفية، تطفو من عيونهم، مثل الأبخرة الإسفنجية التي تتصاعد من أرضٍ تُطقطقُ بفعل الأمطار الحارة. عُزلةٌ جنسية للسحب في السماء، وعُزلةٌ لغويةٌ للبشر على الأرض.

هنا عددُ الناس الذين يُفكِّرون وحدهم، الذين يُغنُّون وحدهم، يأكلون ويتحدَّثون وحدهم في الشوارع، هو عددٌ مذل. ورغم ذلك فإنهم لا يُضافون الى بعضهم. بل على العكس، يُطرحون من بعضهم، وشبهُهم ببعضهم غيرٌ مؤكَّد.

لكن ثمة عُزلةٌ بعينها لا تشبهُ أي واحدةٍ سواها. هي عُزلة الرجل الذي يُعَدُّ وجبته علانيةً، فوق جدار، أو فوق الغطاء المعدني لسيارة، أو بطول حاجزٍ، وحيداً. هنا يشاهدُ المرءُ هذا في كل مكان، وهو أتعسُ منظرٍ في العالم. فالرجل الذي يأكل وحيداً على رؤوس الأشهاد أتعسُ من البؤس، أتعسُ من المتسول. وليس ثمة ما هو أشد تناقضاً مع قوانين البشر أو الوحوش، إذ تمنح الوحوش بعضها دوماً شرفَ اقتسامٍ أو تنازُع الطعام. ومن يأكل وحده ميِّتٌ (لكن ليس من يشرب وحده، لماذا؟).

*

لماذا يحيا الناسُ في نيويورك؟ ليس فيما بينهم أية رابطة. سوى كهرباءٍ داخليةٍ تنشأ عن مجرد اختلاطهم المشوَّش promiscuité. إحساسٍ سحري بالتجاور، والانجذاب الى مركزيةٍ مصطنعة. هذا ما يجعل منها كوناً ذاتي الجاذبية، ما من سببٍ لمغادرته. وما من سببٍ إنسانيٍ للتواجد هناك، سوى مجرد نشوة الاختلاط المشوَّش.

*

جمال نساء نيويورك السوداوات والبويرتوريكيات. فضلاً عن الإثارة الجنسية التي تنشأ عن الاختلاط العرقي المشوَّش، يجب القول بأن السود، صِبغُ الأجناس الداكنة، بمثابة ماكياجٍ طبيعيٍ يتميَّز عن الماكياج الاصطناعي ليصوغ جمالاً – ليس جنسياً: بل حيوانياً ومتسامياً –

تفتقر إليه، بصورة يائسة، الوجوه الشاحبة. يبدو البياض تخفيفاً للزينة الجسدية، حياً يستحوذ، ربما بفضل ذلك، على كل السلطات الخارجية للكلمة، لكنه سيفتقر في أعماقه دائماً إلى القوة الباطنية والطقسية للتصنع.

*

في نيويورك توجد هذه المعجزة المزدوجة : فكل واحد من المباني الضخمة يسيطر على المدينة أو يسيطر عليها ذات حين، وكل واحدة من المجموعات العرقية تسيطر على المدينة أو سيطرت عليها ذات حين، على طريقتها. والاختلاط المشوش يُضفي الوميض على كل واحد من مكوناته، بينما يميل في الأماكن الأخرى إلى إلغاء الاختلافات. فكل العناصر موجودة في مونتريال – المجموعات العرقية، والمباني، والفضاء الأمريكى الشمالى - ، لكن بدون وميض وعنف مدن الولايات المتحدة.

السحب تُلطّخُ سماواتنا في أوروبا. وبالمقارنة مع السماوات الشاسعة لأمريكا الشمالية، بسحبها الملبدّة، فإن سماواتنا الضئيلة المندوفة، وسحبنا الضئيلة المندوفة، تشبه أفكارنا المندوفة، التي ليست أبداً أفكار فضاءٍ رحيب . . . في باريس، لا تُقلعُ السماء أبداً، لا تُحلّق فوقنا، بل تظلّ مشتبكةً، كأنها قطعة صغيرة من الملكية الخاصة، في خلفية المباني السقيمة، التي تحيا في ظلال بعضها البعض، بدل أن تكون، مثلما في العاصمة الكبرى نيويورك، الواجهة الزجاجية المُدوّخة التي تعكس كلّ مبنى لغيره من المباني. . . لم تكن أوروبا قارة أبداً : يتضح هذا من سماواتها. وفور أن تضع قدمك في أمريكا الشمالية، تشعر بحضور قارة برمتها – فالفضاء هناك هو ذات شكل الفكر.

*

في مقابل مناطق "وسط المدينة" الأمريكية بمجموعاتها من ناطحات السحاب، تفقد منطقة لا ديفانس la Défense المزاي المعمارية للرأسية والإفراط بكونها حشرت مبانيها العالية في مشهدٍ على الطريقة الإيطالية، في مسرحٍ مغلقٍ يُطوّقه طريقٌ دائري. إنها بشكلٍ ما حديقةٌ على الطريقة الفرنسية : باقةٌ من المباني يلقها شريط. وهذا يستبعد إمكانية أن تولّد هذه الوحوش غيرها إلى ما لانهاية، أن تتحدّى بعضها، في فضاءٍ تجعله هذه المنافسة ذاتها درامياً (نيويورك، شيكاغو، هيوستون، سياتل، تورونتو). في مثل ذلك الفضاء يتولّد الموضوع المعماري الخالص ، ذلك الذي يُفلت من سيطرة المعماريين، الذي يتنكّر في أعماقه بصورة قاطعة للمدينة واستخداماتها، يتنكّر لمصلحة المجموع والأفراد، ويتمادى في هذيانه الخاص. وليس لهذا الموضوع من نظيرٍ سوى غطرسة مدن عصر النهضة.

*

لا، لا يجب أنسنة العمارة. فالعمارة-المضادة، الحقيقية (ليس عمارة أركوسانتى Arcosanti، أريزونا، التي تجمع معاً كل التكنولوجيات اللينة في قلب الصحراء) – بل العمارة المتوحشة، اللاإنسانية، تلك التي تتجاوز الإنسان، قد صنعت نفسها هنا، بمفردها، في نيويورك، دون اعتبارٍ للحيز، ولا للرفاهية أو البيئة المثالية. لقد اختارت التكنولوجيات الصلبة، وبالغت في كل الأبعاد،

وراهنت على الجنة والجحيم. . . العمارة-البيئية، مثل المجتمع-البيئي، هي الجحيم الرقيق لانهايار الإمبراطورية الرومانية.

*

أعجوبة عمليات الهدم الحديثة. إنها عرضٌ معكوسٌ لعرض إطلاق صاروخ. فالمبنى ذو العشرين طابقاً ينزل بكامله رأسياً تماماً صوب مركز الأرض. يتهاوى في خطٍ مستقيم مثل دمية خياط، دون أن يفقد انتصابه الرأسى، كأنه يسقط في فخ أرضى، وتمتصُّ أنقاضه مساحته السطحية ذاتها. ياله من فنٍ عجيب من فنون الحداثة، يعادل فن الألعاب النارية في طفولتنا.

*

يقال أن الشارع حيٌّ في أوروبا، لكنه ميّت في أمريكا. هذا قولٌ باطل. فليس ثمة ما هو أشدّ كثافةً، وإلهاباً وحيويةً، وتلاطمًا من شوارع نيويورك. فهي تعجُّ بالزحام، وحركة المرور، والإعلانات، في عنفٍ تارةً، وفي طلاقةٍ تارةً أخرى. ملايين الأشخاص يحتلّون الشوارع، متصعلكين، لامبالين، وعنيفين، كأنما ليس لديهم شيءٌ آخر يصنعونه، ولا ريب أنهم ليس لديهم حقاً ما يصنعونه سوى أن ينتجوا سيناريو المدينة الدائم. الموسيقى في كل مكان، وحركة المرور كثيفة، محتدمة وصامتة نسبياً (فليست هي حركة المرور العصبية والمسرحية على الطريقة الإيطالية). الشوارع والطرق لا تفرغ أبداً، لكن الهندسة الواضحة والفسحة للمدينة تستبعد الاختلاط المشوّش للمختنق للشوارع الأوروبية الضيقة.

في أوروبا، لا يحيا الشارع إلا في طفرات، في اللحظات التاريخية للثورة، والمنازيس. وفيما عدا ذلك يعبر الناس بسرعة، ولا يتلكأ أحدٌ حقاً (فلم يعد أحدٌ يتصعلك). نفس الشيء بالنسبة للسيارات الأوروبية : فلا أحد يحيا فيها، فليس فيها متسعٌ كافٍ. والمدن أيضاً ليس فيها متسعٌ كافٍ – أو بالأحرى يُعدُّ هذا المتسع فضاءً عاماً، ويحمل كل علامات الحلبة العامة، مما يحظر عبوره أو التجوّل فيه كأنه صحراءٌ أو فضاءٌ لا مبالٍ.

ربما لم يشهد الشارع الأمريكى لحظات تاريخية، لكنه دوماً متلاطم، وحيٌّ، وحركى، وسينمائى ، على صورة البلاد ذاتها، حيث لا يهم كثيراً المشهد التاريخى أو السياسى فى ذاته، لكن حيث تتخذ حدة التغيير، سواء بدافع التكنولوجيا، أو اختلاف الأعراق، أو وسائل الإعلام، أبعاداً كبرى : وهذا العنف هو ذات عنف نمط الحياة.

*

فى نيويورك، يبلغ من قوة تدويم المدينة، ومن شدة قوتها الطاردة المركزية أن مما يفوق طاقة البشر تخيلُ العيش فى علاقةٍ ثنائية ومشاركةٍ شخصٍ آخر فى حياته. فلا يستطيع البقاء هنا سوى القبائل، أو العصابات، أو عائلات المافيا، أو الجمعيات السرية أو الشاذة : بعض التجمعات التواطؤية المعينة، لكن ليس العلاقات الثنائية couples. إنها سفينة نوح النقيضة l'anti-Arche، فى سفينة نوح كانت الحيوانات تصعد الى متنها أزواجاً لإنقاذ الأنواع من الفيضان. وهنا، فى هذه السفينة الخرافية، يصعد كلٌ واحدٍ الى متنها بمفرده – وعليه أن يعثر، كل مساءً، على آخر الناجين من أجل الحفل الأخير.

*

فى نيويورك، تم الإفراج عن المجانين. أطلق سراحهم فى المدينة، ومن الصعب تمييزهم عن غيرهم من الپانك punks، ومتعاطى الحُقن junkies، ومدمنى المخدرات، ومدمنى الكحول، أو البؤساء الذين تعجُّ بهم. ما من سبب يجعل مدينةً بكل هذا الجنون تُبقى مجانينها فى الظل، تسحب من التداول عيناتٍ من جنونِ يَتمَلِّكُ المدينة بأسرها، فعلياً، بأشكالٍ متنوّعة.

*

جَمباز الراب rap هو نوعٌ من المأثرة الأكروباتية، لا يتبين المرء أنه رقصٌ إلا عند النهاية، حين يتجمّد الراقص فى وضعٍ خاملٍ، لا مبالٍ (المرفق على الأرض، والرأس مستندةً بلا مبالاة على راحة اليد، مثلما يرى المرء فى المقابر الإيتروسكية). هذا الجمود المبالغت يُذكر المرء بالأوبرا الصينية. لكن المحارب الصينى يتجمّد فى قمة الفعل فى إيماءة بطولية، بينما يتجمّد راقص الراب فى أدنى دركٍ لحركته فى إيماءة تثير السخرية. ويمكن القول بأن الراقصين، بتلويهم والتفافهم هكذا على أنفسهم عند سطح الأرض، يبدو أنهم يحفرون لأنفسهم فجوةً داخل أجسادهم، يتخذون فى أعماقها الوضع التهكمى والمتكاسل للموت.

*

ما كنتُ لأعتقد مطلقاً أن ماراثون نيويورك يمكن أن ينتزع منك الدموع. إنه حقاً عرضٌ نهائية العالم. هل يمكننا الحديث عن معاناة طوعية مثلما نتحدّث عن عبودية طوعية؟ تحت المطر المنهمر، وتحت طائرات الهليكوبتر التى تحلق فوق الرؤوس، وتحت وابل الهتافات، مرتدين قلنسوةً من الألومنيوم ومختلسين النظر الى ساعاتهم الميفاتية، أو بصدورٍ عارية وعيونٍ زائغة، يبحث الجميع عن الموت. الموت من الإعياء الذى كان من نصيب عداء الماراثون الأول منذ ألفى عام. ودعونا لا ننسى أنه كان يحمل الى أثينا رسالة انتصار. ولا ريب أنهم أيضاً يحملون بنقل رسالة ظافرة، لكن أعدادهم أكثر مما يجب، ولم يعد لرسالتهم من معنى : إنها رسالة وصولهم ذاته، بأقصى جهدهم – رسالة غسقية عن جهدٍ عبثي ويتجاوز طاقة البشر. ويبدو بالأحرى أنهم ينقلون، فى مجموعهم، رسالة عن كارثة وقعت للجنس البشرى، الذى يراه المرء يتدهور من ساعةٍ لأخرى مع وصول العدائين، من أولئك المتينى البنيان والتنافسيين الذين يصلون أولاً، الى المحطّمين الذين يحملهم أصدقاؤهم حرفياً الى خط النهاية، وحتى المعاقين الذين قطعوا المسافة فى كراسيهم المتحركة. إنهم سبعة عشر ألف عداء، ولا يملك المرء إلا أن يفكر فى معركة ماراثون الحقيقة، التى لم يكن يقاتل فيها سبعة عشر ألفاً. إنهم سبعة عشر ألفاً، وكل واحدٍ منهم يعدو وحيداً، دون حتى روح الانتصار، لمجرد أن يشعر بأنه موجود. "لقد فُزنا!" يلهث بها عداء ماراثون الإغريقى وهو يلفظ أنفاسه. "I did it!" ["فعلُتها!"]، يتنهد عداء الماراثون المُنهك وهو يتهاوى على نجيل حديقة سنترال بارك.

*

I DID IT

شعارٌ شكليّ جديدٌ من النشاط الإعلاني، ذى أداءٍ توحّدي (4) autistique، شكليّ خالصٍ وفارغٍ وتحدّ لذات المرء، حلّ محلّ النشوة البروميثيوسية للمنافسة، والجهد، والنجاح.

تحوّل ماراثون نيويورك الى نوعٍ من الرمز الدولي لهذا الأداء الصنمي، لجنون انتصارٍ فارغٍ، لتمجيد ماثرةٍ لا أهمية لها.

أنا عدوت ماراثون نيويورك : *I did it !*.

أنا هزمت قمة أنابورنا (5) : *I did it !*.

والهبوط على سطح القمر هو من نفس النوع : *We did it !*. فهو حدثٌ أقلّ إدهاشاً في العمق حيث كان مبرمجاً سلفاً في مسار التقدم والعلم. كان يجب عمله. وتم عمله. لكن هذا الحدث لم يُنعش الحلم الألفى لغزو الفضاء، بل استنفده على نحوٍ ما.

نفسُ الحسّ باللاجدوى ينطوى عليه كلُّ تنفيذٍ لبرنامج، مثلما يكمن في كل ما يفعله المرء ليثبت لنفسه أنه قادرٌ على فعله : إنجاب طفلٍ، أو تسلّق جبلٍ، أو القيام بغزوةٍ جنسية، أو الانتحار.

الماراثون هو شكليّ من الانتحار التوضيحي، من الانتحار الإعلاني : إنه العدوّ لإظهار أن المرء قادرٌ على المضى إلى آخر قطرةٍ من الطاقة في ذاته، لتقديم البرهان. . . البرهان على ماذا؟ على أن المرء قادرٌ على الوصول الى نقطة النهاية. والشعارات الجدارية graffiti بدورها لا تقول سوى : أنا فلان وأنا موجود ! إنها دعاية مجانية للوجود !

هل يجب أن يُثبت المرء لنفسه على الدوام أنه حيٌّ؟ إنها علامةٌ غريبة على الضعف، ونذيرٌ بتعصّبٍ جديد، تعصّبٍ لأداءٍ لا وجه له، لبداهةٍ بلا نهاية.

*

MYSTIC TRANSPORTATION INCORPORATED

عربة نقلٍ خضراء مائلة الى الزرقة بأجزاء من الكروم المتألّيء تهبط الشارع السابع، تحت الشمس الصباحية الباكّة، بعد سقوط الجليد مباشرةً. وعلى جانبيها، بحروفٍ ذهبٍ معدنية، كلمتا Mystic Transportation :

إنها تُلخّص كلّ نيويورك ورؤيتها الصوفية للانحطاط : هنا، نجد أن كل المؤثرات الخاصة، من التسامي الرأسى حتى التعفن عند سطح الأرض، كل المؤثرات الخاصة للاختلاط المشوّش للأجناس والإمبراطوريات، هي البعد الرابع للمدينة.

فيما سيأتى ستكون المدن ممتدّة أفقياً وغير حَضَريّة (لوس أنجلوس)، وفيما سيتلو ذلك، ستتوارى في التراب ولن تعود لها أسماء. سيتحوّل كلّ شيءٍ الى بنيةٍ تحتية يغمرها الضوء والطاقة الاصطناعيان. ستكون قد اختفت البنية الفوقية اللامعة، والرأسيّة المجنونة. نيويورك

هى الإفراط الأخير لهذه الرأسية الباروكية، لغرابة الأطوار الطاردة المركزية هذه، قبل حلول التفكير الأفقى، والانطمار تحت الأرض الذى سيتلوه.

*

بتواطؤ رائع من جانب كل سكانها، تؤدى نيويورك دراما كارتتها. وليس هذا أثراً لانحطاطها، بل أثر لقوتها ذاتها، التى لا يتهدها شىء من الخارج – لأن لاشىء يتهدها. وذات كثافتها، وكهربائها السطحية تستبعدان فكرة الحرب. فبدء الحياة من جديد كل صباح هو نوع من المعجزة، نظراً لمقدار الطاقة التى تم استهلاكها فى اليوم السابق. جهدها الكهربى يحميها، مثل قبة جهد كهربى، من كل أنواع التدمير الخارجية. لكن ليس من الحوادث الداخلية مثل إظلام عام 1976. إلا أن نطاق هذه الحوادث يجعل منها أحداثاً عالمية ويضيف المزيد الى مجد المدينة. هذه المركزية وهذه الغرابة لاتفعلان سوى منحها حساً مجنوناً بنهايتها الخاصة، التى يعيد "المشهد" النيويوركى تسجيلها جمالياً فى صور جنونها، وفى نزعتها التعبيرية العنيفة، التى تُنمّيها المدينة بأسرها جماعياً فى الهوس التقنى للرأسية، فى التسارع الدائم للابتذال، فى الحيوية الهائلة أو التعسة للوجوه، فى وقاحة تضحياتها بالبشر لصالح دورتها الخاصة.

لا أحد ينظر إليك، فالجميع منهمكون فى الجهد الجياش لأداء أدوارهم اللاشخصية. وما من رجال شرطة فى نيويورك – فيما عداها من الأماكن يوجد رجال الشرطة لإعطاء مظهر حضرى وحديث لمدن ما زالت نصف-ريفية (وباريس مثالاً جيّد على ذلك). هنا بلغت الحضرية حدّاً لا يصبح معه من الضرورى التعبير عنها أو إعطائها طابعاً سياسياً. وفضلاً عن ذلك، لم تعد نيويورك مدينةً سياسية، وتظاهرات هذه الجماعة الإيديولوجية أو تلك نادرة ولها دوماً طابعٌ يبعث على السخرية (والجماعات العرقية تعبّر عن نفسها من خلال شكل المهرجان والاستعراض العرقى لوجودها). عنفُ نيويورك ليس عنفَ العلاقات الاجتماعية، بل عنف كل العلاقات، وهو عنفُ أسّى (6) exponentielle. وحتى الجنسية sexualité ذاتها تم تجاوزها على نحو ما بوصفها نمطاً للتعبير – فرغم كونها معروضةً فى كل مكان، لم يعد لديها الوقت للتحقق مادياً فى علاقات إنسانية وغرامية، وتتبخّر فى الاختلاط المشوّش لكل اللحظات العابرة، فى تعدّد اشكال التواصل الأشد زوالاً. فى نيويورك يُعيد المرء اكتشاف حسّ بالمجد، بمعنى أنك تشعر بأن طاقة الجميع تصنع هالةً تُطوّفك – وهذا ليس الاستعراض الكئيب للتغير، مثلما فى أوروبا، بل إنه الشكل الجمالى لتحول.

*

نحن، فى أوروبا، نملك فن التفكير فى الأشياء، وتحليلها، وتأملها. لا يمكن لأحد أن ينازعنا هذه الرهافة التاريخية وهذا الخيال المفهومى. وحتى العقول العظيمة عبر الأطلنطى تحسدنا على هذا. لكن الحقائق المُدوية، والتأثيرات الخارقة الراهنة تقع فى نطاق ساحل الباسيفيكي أو فى دائرة مانهاتن. يجب القول بأن نيويورك، ولوس أنجلوس تقعان فى مركز العالم، حتى لو كان فى هذا شىء يُحمّسنا و يُتّعسنا فى آن واحد. إننا متأخرون بصورة يائسة عن الحماسة والطابع التحولى، عن الإفراط الساذج و غرابة الأطوار الاجتماعية، والعرقية، والأخلاقية، والمورفولوجية، والمعمارية لهذا المجتمع. وليس باستطاعة أحد أن يحلّله، خصوصاً المثقفين

الأمريكيين المحبوسين في جامعاتهم، المعزولين بصورةٍ دراميةٍ عن هذه الميثولوجيا المتعينة، العجيبة، التي تتطوّر في كل مكانٍ حولهم.

*

إنه عالمٌ تعفّن تماماً بفعل الثروة، والقوة، والشيخوخة، واللامبالاة، بفعل البيوريتانية والصحة العقلية، بفعل البؤس والتبديد، بفعل الخيلاء التكنولوجي والعنف غير المجدي، ورغم ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسي من الإحساس بأن به لمحةً من فجر الكون. وربما كان ذلك راجعاً إلى أن الدنيا بأسرها تواصل الحلم بهذا العالم، رغم أنه يُسيطر عليها ويستغلّها فعلاً.

*

على ارتفاع عشرة آلاف متر وبسرعة ألف كيلومتر في الساعة، أجد تحتى كتل جليد جرينلاند، وفي سماعات أذنى موسيقى *Indes Galantes* (7)، وعلى الشاشة كاترين دينيف، وعجوز، يهودى أو أرمنى، يرقد على حجرى. "نعم، أحسُّ بكل عنف الحب..." يغنى الصوت المتسامى عابراً منطقة توقيتٍ زمني إلى التالية. فى الطائرة، ينام الناس، ولا تعرفُ السرعةُ عنفَ الحب. بين ليلةٍ والتي تليها، بين الليلة التى سافرنا فيها، واللييلة التى سنبهط فيها، لن يكون النهار قد دام سوى أربع ساعات، لكن الصوت المتسامى، صوت الأرق يمضى بسرعةٍ أكبر. إنه يعبر الجوّ الجليدى عبر المحيط، وينساب عبر الرموش الطويلة للممثلة، عبر الأفق البنفسجى للشمس البازغة، وداخل نعش الطائرة الدافىء، ليخمد أخيراً على طول ساحل آيسلندا. حسناً، انتهت الرحلة.

**

أمريكا الكوكبية

أمريكا الكوكبية. الطابع الغنائى لحركة المرور الخالصة . فى مقابل سوداوية التحليلات الأوروبية . التأثير الكوكبى الفورى الناتج عن المتجهات ، والإشارات ، عن الرأسية ، والفضاء . فى مقابل المسافة المحمومة للنظرة الثقافية .

بهجة انهيار الاستعارة ، التى لا نجنى منها فى أوروبا سوى الحزن . جذل الفحش ، فحش البداة ، بداة القوة ، قوة المشابهة (1) simulation . فى مقابل عذريتنا المخدوعة ، مهاوى تصنعنا .

التأثير الكوكبى . الأفقى ، للسيارة ، والرأسى ، للطائرة ، والإلكترونى ، للتلفزيون ، والجيولوجى ، للصحراوات ، و الحجرى - المجسم stereolytique للمدن الكبرى ، و عبر - السياسى ، للعبة القوة ، لمتحف القوة الذى أصبحت أمريكا بالنسبة للعالم بأسره .

*

بالنسبة لى ليس ثمة حقيقة لأمريكا . لا أطلب من الأمريكيين سوى أن يكونوا أمريكيين . لا أطلب منهم أن يكونوا أذكىاء ، أو حصيفين ، أو أصلاء ، لا أطلب منهم سوى أن يعمروا فضاء لا يقارن به فضائى ، أن يكونوا بالنسبة لى أعلى موضع كوكبى ، أجمل فضاء مدارى . لماذا أذهب لأنزع - مركزية نفسى فى فرنسا ، فى الإثنى والمحلى ، اللذين ليسا سوى فتات و بقايا المركزية ؟ أود أن أنحرف عن المركز ، أن أصبح غريب الأطوار ، لكن فى مكان يكون مركز العالم . وبهذا المعنى فإن آخر منفذ للوجبات السريعة fast-food ، الضاحية suburb الأشد ابتذالا ، أقبح السيارات الأمريكية الضخمة ، أو أتفه قارعة طبل فى مجلة قصص مصورة ، فى مركز العالم أكثر من أى تبدّ ثقافى لأوروبا العجوز . هذا هو البلد الوحيد الذى يتيح هذه الإمكانية للسذاجة الفظة : فانت لا تطالب الأشياء ، ولا الوجوه ، ولا السماوات ، ولا الصحراوات سوى أن تكون ماهى عليه ، just as it is .

*

أمريكا تمنحنى دوما شعوراً بزهدٍ حقيقى . فالثقافة ، والسياسة ، بل وحتى الجنسية sexualite ، خاضعة فيها للرؤية الحصرية للصحراء ، التى تشكّل هنا المشهد البدئى . وكل شئٍ يتلاشى

أمام هذا المشهد . حتى الجسد يتخذ ، بتأثير سوء تغذية مترتب على ذلك ، شكلاً شفافاً ، خفةً تُقارب التلاشى . وكل ما يحيط بى يشارك فى هذا التصحر . لكن هذا التجريب الجذرى هو وحده ما يتيح لى العبور ويُنتج هذه الخاصية الكوكبية التى لن أجدّها فى أى مكان آخر .

*

أمريكا ليست لا حلمًا ، ولا واقعًا ، إنها واقعٌ - مُفرط hyperrealite . إنها واقعٌ - مُفرطٌ لأنها يوتوبيا تُعاش منذ البداية باعتبارها متحققة . كل شىء هنا واقعى ، براجماتى ، وكل شىء يجعلك تحلم . ربما لا يمكن لحقيقة أمريكا أن تظهر إلّا لأوروبى ، لأنه وحده من سيجد هنا الشبيه (1) simulacre الكامل ، شبيه المحايثة والنسخ المادى لكل القيم . الأمريكيون ، أنفسهم ، ليس لديهم أى حس بالمشابهة simulation . إنهم التجسيد الكامل لها ، لكن ليس لديهم اللغة التى تعبر عنها ، كونهم هم أنفسهم نموذجها . ومن ثم فإنهم يشكلون المادة المثالية لتحليل كل التنبؤات الممكنة للعالم الحديث . لا أكثر ولا أقل فى الحقيقة مما كانته المجتمعات البدائية فى زمنها . نفس الإثارة الأسطورية والتحليلية التى جعلتنا نوجّه أبصارنا صوب تلك المجتمعات الأسبق تدفعنا اليوم الى النظر باتجاه أمريكا ، بنفس الحماس ونفس الأحكام المسبقة prejugués .

*

فى الحقيقة ، لا يتخذ المرء هنا مسافة من أوروبا ، كما كنت آمل . لا يكتسب زاوية رؤية جديدة . فحين تستدير ، تكون أوروبا قد اختفت ببساطة . ليس الأمر هنا هو اكتساب زاوية رؤية نقدية لأوروبا . إذ يمكن عمل هذا جيدا فى أوروبا ذاتها ، فضلا عن ذلك ، ما الذى يمكن نقده ولم يجر ذلك ألف مرة ؟ ما يجب عمله هو الدخول الى اختلاق fiction أمريكا ، الدخول الى أمريكا بوصفها اختلاقاً . فعلى هذا الأساس ، فى الحقيقة ، تسيطر على العالم . وحتى لو كانت كل تفصيلة من أمريكا تافهة ، فإن أمريكا هى شىء يتجاوزنا جميعا ...

*

أمريكا هى هولوجرام (2) عملاق ، بمعنى أن المعلومات التى تتعلق بالكل متضمنة فى كلّ واحدٍ من عناصره . خذ أصغر محطة فى الصحراء ، أو أى شارع فى إحدى مدن الغرب الأوسط ، موقف سيارات ، أو منزل فى كاليفورنيا ، مطعم بورجر كينج أو سيارة ستودبيكر Studebaker ، وسوف يكون لديك أمريكا برمتها - جنوبها ، أو شمالها ، شرقها أو غربها . وهى هولوجرافية بمعنى ضوء الليزر المتناسك ، وتجانس العناصر المفردة التى تمسحها نفس الأشعة . ومن وجهة النظر البصرية والتشكيلية أيضا : فالأشياء تعطى الانطباع بأنها مصنوعة من مادة أشد لاواقعية ، أنها تدور وتتحرك فى الفراغ كأنما بفعل مؤثرات ضوئية خاصة ، كأنما بفعل غشاء رقيق يعبره المرء دون أن يدرك ذلك . يصدق هذا على الصحراء بالتأكيد ، لكن كذلك على لاس فيجاس ، وعلى الإعلانات ، وكذلك على نشاطات الناس ، و العلاقات العامة public relations ، والإلكترونيات الحياة اليومية ، فكلها تبرز بتشكيلية وبساطة إشارة ضوئية . الهولوجرام قريب من الاستيهام phantasme ، فهو حلم ثلاثى الأبعاد ، ويمكن للمرء أن يدخله كما يدخل الحلم . كل شىء يعتمد على وجود شعاع الضوء الذى يحمل الأشياء ، وإذا

انقطع ، تشتت كل المؤثرات ، ومعها الواقع أيضا . يتولد حقا لدى المرء الانطباع بأن أمريكا تتكون من تبدل فانتازى fantastique بين عناصر متشابهة ، ولا يجمع بين كل شيء سوى خيط شعاع ضوئى ، شعاع ليزر، يمسح الواقع الأمريكى أمام أعيننا . ما هو طيفى spectral هنا ليس ما هو شبكى fantomal أو رقص الأشباح spectres، بل الطيف spectre الذى ينتشت إلى الضوء .

*

على حواف التلال الفيحاء لسانتا باربارا ، تبدو كل الفيللات كأنها دورٌ جنائزية funeral homes . بين شجيرات الجاردينيا وأشجار اليوكاليتوس، وسط وفرة الأنواع النباتية ورتابة النوع البشرى ، يكمن المصير المشئوم لليوتوبيا المتحققة . فى قلب الثراء والتحرر ، يُطرح دائما نفس السؤال : " ماذا ستفعل بعد الحفل الماجن؟ " "what are you doing after the orgy?" ما العمل حين يكون كل شيء متاحاً ، الجنس ، والأزهار ، والنماذج النمطية للحياة والموت ؟ هذه هى مشكلة أمريكا ، ومن خلال أمريكا ، أصبحت مشكلة العالم بأسره .

كل مقرٍ به شيءٌ من المقبرة ، لكن لا شيء هنا ينقص الصفاء الزائف . الحضور الكلى الشائن للنباتات الخضراء ، مثل هاجس موت حقيقى ، والكوى المكسوة بالزجاج التى تشبه تابوت سنو وايت الزجاجى ، و أجسام الأزهار الشاحبة الّزمة التى تمتد فى جلطات مثل تليف ، و المعدات التقنية التى لا تحصى والتى تنتشر فى المنزل ، وتحت المنزل ، وحول المنزل ، مثل أنابيب المحاليل فى وحدة عناية مركزة ، وأجهزة التلفزيون ، والستيريو ، والفيديو ، التى تضمن التواصل مع الما وراء ، والسيارة ، أو السيارات التى تضمن الاتصال مع السوبر ماركت ، البهو الجنائزى الضخم للمشتروات - واخيرا ، الزوجة والأطفال كأعراض متألقة للنجاح... كل شيء هنا يشى بأن الموت قد وجد أخيرا مقره المثالى .

*

فرن الميكروويف ، وآلة سحق القمامة ، الليونة الأورجازمية للموكيت : هذا النوع من الحضارة ، الناعم والشبيه بالمنتجات ، يستدعى حتما نهاية العالم . كل النشاطات هنا تحمل ظللاً سرية لنهاية العالم : هؤلاء الدارسون الكاليفورنيون المهووسون بالأشياء الفرنسية أو بالماركسية ، وهذه الطوائف المتعددة المهووسه بالعفة أو بالجريمة ، هؤلاء العدّاؤون المُسرّتمون فى الضباب ، كظلال هاربة من كهف أفلاطون ، هؤلاء المتخلفون عقليا أو المنغوليون الحقيقيون جداً الهاربون من المستشفيات النفسية (هذا التحرير للمجانين داخل المدينة يبدو لى علامة أكيدة على نهاية العالم ، رفعا لآخر أختام القيامة)، هؤلاء البدينون الهاربون من المعامل الهورمونية لأجسادهم ذاتها ، وهذه المنصات البترولية - oil sanctuaries - الساهرة من بعيد فى الليل مثل كازينوهات فاخرة أو سفن فضائية ...

*

واقعية - مفرطة فاتنة

تقشف نشوان

لقطة - واسعة متعددة المراحل

تعددية - أبعادٍ تفاعلية

نسف أدمغة

Western Digitals

Body Building Incorporated

Milage unlimited

Channel Zero

*

البار المُريب فى سانتا باربارا . حمّالات السراويل الحمراء للاعبى البلياردو . فوكوه ، وسارتر ، وأورسون ويلز ، ثلاثتهم على البار ، يتحدثون معا ، مُقنعين على نحو غريب ، ويحملون شبهاً مذهلاً بالأصل . *Cocktail scenery* . رائحة العنف ، وعطن البيرة . *Hustling is prohibited* .

*

جنس، وبلاج، وجبل . جنس وبلاج ، بلاج وجبل . جبل وجنس . بضعة مفاهيم . جنس ومفاهيم *Just a life* . [مجرد حياة]

كل شىء تتم استعادته كمشابهة simulation . المناظر تستعيدها الفوتوغرافيا ، والنساء يستعيدهن السيناريو الجنسى ، و الأفكار تستعيدها الكتابة ، والإرهاب تستعيده الموضة ووسائل الإعلام ، والأحداث يستعيدها التلفزيون . يبدو وكأن الأشياء لا توجد إلا بفضل هذا المصير الغريب . ويمكن للمرء أن يتساءل إن كان العالم ذاته لا يوجد إلا كمجرد نسخة للدعاية فى عالم آخر .

حين يكون الجمال الجسمانى الوحيد هو ذاك الذى تخلقه الجراحة التجميلية ، والجمال الحضرى الوحيد هو ذاك الذى تخلقه جراحة المساحات الخضراء ، والرأى الوحيد هو ذاك الذى تخلقه الجراحة التجميلية لاستطلاعات الرأى ... تأتى الآن ، مع التلاعب الجينى ، الجراحة التجميلية للجنس البشرى .

*

هذه ثقافة تبتكر في نفس الوقت معاهد متخصصة لجعل الأجساد تلتقي لتتلامس وقدر لايلمس فيها الماء قاع القدر ، المصنوع من مادة يبلغ من تجانسها ، وجفافها ، واصطناعيتها ، ألا تعلق بها قطرة ماء واحدة ، مثلما لا تتلامس لحظة واحدة تلك الأجساد المتعانقة في الإحساس *feeling* والحب العلاجي . ويُطلق على هذا اسم السطح المشترك *interface* أو التفاعل *interaction* . حل هذا محل المواجهة و الفعل ، ويطلق عليه اسم التواصل . فهذه الأشياء تتواصل : المعجزة أن قاع القدر يوصل حرارته الى الماء دون أن يلمسه ، في نوع من الغليان عن بعد ، مثلما يوصل جسد الى الآخر سائله ، طاقته الشبقية ، دون أن يغويه أو حتى يزعجه، عن طريق نوع من الخاصية الشعرية الجزيئية . لقد نجحت شفرة الانفصال الى حد التوصل الى فصل الماء عن القدر وجعل القدر ينقل الحرارة كرسالة ، أو جعل جسد ما ينقل رغبته الى الآخر كرسالة ، كسائل يجب فك شفرته . يطلق على هذا اسم المعلومات ، وقد تخللت كل شيء مثل لحن مميز رُهابي وهوسي يفعل فعله في كل من العلاقات الشبقية و أدوات المطبخ .

*

أمثلة أخرى على نفس هذا الهوس بالتعقيم :

متحف جيتي Getty ، حيث تبدو اللوحات القديمة كالجديدة ، لامعة و براقّة ، مُنظّفة من كل أكسدة وتشققات ، بوميض اصطناعي يماثل الديكور الذي يحيط بها من " طراز بومبيي الزائف" .

وفي فيلادلفيا : طائفة جذرية تحل اسم (3) MOVE ، تحكمها قواعد غريبة بينها واحدة ترفض في أن واحد ممارسة التشريح والتخلص من القمامة ، أجلتها الشرطة الأمريكية ، التي قتلت أحد عشر شخصا بالنيران وأحرقت ثلاثين منزلاً مجاوراً جميعها ، وبالمفارقة ، منازل الجيران الذين طالبوا بالتخلص من الطائفة .

تلك أيضاً عملية تطهير، يتم فيها التخلص من القمامة والتشققات ، وإعادة الأمور الى حالة النظافة الأصلية ، عملية ترميم . *Keep America clean* . [حافظوا على نظافة أمريكا]

*

تلك الابتسامات التي يوجّهها إليك الجميع وهم يعبرون ، الانقباضُ الودودُ للفكين بفعل الحرارة الإنسانية . إنها ابتسامات التواصل الأبدية ، تلك التي ينتبه من خلالها الطفل الى وجود الآخرين ، أو يتساءل بيأس عن وجودهم ، انها مُعادِلُ الصرخة البدئية للإنسان الوحيد في العالم . ومهما كان الأمر ، فإنهم يبتسمون لك هنا ، وليس ذلك بدافع المجاملة أو الإغواء . فهذه الابتسامات لا تعنى سوى الحاجة الى الابتسام . وهى تشبه نوعاً ما ابتسامة قط تشستر Chester : إذ تظل تطفو على الوجوه بعد زمنٍ طويلٍ من اختفاء كل عاطفة . إنها ابتسامات متاحة في كل لحظة ، لكنها تخشى أن توجد وأن تكشف عن نفسها . ليس وراءها دافع - مسبق ، لكنها تبقيك على مسافة . إنها تشارك في التبريد العام للمشاعر ، وهى فى الحقيقة تلك التى سترتسم على وجه

الميت فى داره الجنائزية *funeral home* ، بينما يتمسك بالأمل فى الإبقاء على التواصل ، حتى فى العالم الآخر . ابتسامة المناعة ، ابتسامة الدعاية : " هذا البلد جيد ، أنا جيد ، نحن الأفضل " . إنها أيضا ابتسامة ريجان Reagan ، ذروة الرضى عن النفس لكل الأمة الأمريكية ، والتي فى طريقها لأن تصبح المبدأ الوحيد للحكم . ابتسامة تنبؤ- ذاتى ، مثل كل علامات الدعاية : ابتسم ، وسوف يبتسم لك الآخرون . ابتسم لتُظهر شفافتك ، وسلامة نيتك . ابتسم لو لم يكن لديك ما تقوله ، والأهم ألا تخفى أنك ليس لديك ما تقوله ، ولا لامبالاة التامة بالآخرين . دع هذا الخواء ، وهذه اللامبالاة العميقة يلتهمان تلقائيا فى ابتسامتك، **إمنح** الآخرين هذا الخواء وهذه اللامبالاة ، أضىء وجهك بدرجة صفر البهجة واللذة ، ابتسم ، ابتسم ... قد لا يكون للأمريكيين هوية ، لكنهم يتمتعون بأسنان رائعة .

والأمر مفيدٌ . إذ يحصل ريجان بهذه الابتسامة على إجماع أكبر بكثير مما يمكن أن يحصل عليه أى من أمثال كنيدي بالعقل أو الذكاء السياسى . اللجوء إلى شكلٍ خالص من الإطراء الحيوانى أو الطفولى أنجح بكثير ، و يتفق الأمريكيون جميعا على تأثير معجون الأسنان هذا . ما من فكرة ، ولا حتى القيم القومية الفريدة ، كان يمكن أن تنتج مثل هذا التأثير . إن مصداقية ريجان تتكافأ تماما مع شفافيته و لاجدوى ابتسامته .

*

من ينزلق على لوح التزلج وفى أذنه جهاز الـ ووكمان ، والمتقف الذى يعمل على جهاز الـ **بوريسيسور** [معالج الكلمات] ، و راقص رابّ حى البرونكس الذى يدور مُهتاجاً فى شارع روكسى ، أو ممارس رياضة الجرى ، أو **كمال الأجسام** : فى كل مكان نفس الوحدة الشاحبة ، فى كل مكان نفس الانكسار *refraction* النرجسى ، سواء تعلق الأمر بالجسد أو بالقدرات العقلية .

سرابُ الجسد استثنائيٌ فى كل مكان . إنه الموضوع الوحيد الذى يتم التركيز عليه ، ليس كمصدرٍ للذة ، بل كموضوعٍ للعناية المتولّفة ، بفعل خوفٍ وسواسى من الاخفاق والأداء المعيب ، علامة و توقع الموت ، الذى لم يعد أحدٌ يدرى له من معنى سوى ضرورة منعه على الدوام . يتم تدليل الجسد بيقينٍ شاذ فى لاجدواه ، بيقينٍ مطلق فى عدم بعثه . اللذة هى نتيجة لبعث الجسد ، يتجاوز بواسطته توازن الهورمونات ، والأوعية الدموية ، والحمية الغذائية الحواذية ، ذاك التوازن الذى نسعى الى سجنه فيه ، تلك التعويذة للياقة البدنية والقواعد الصحية . يجب من ثم جعلُ الجسد ينسى اللذة بوصفها نعمةً راهنة ، جعله ينسى تحوله المحتمل الى أشكال أخرى من التبدى ، وتكريسه للحفاظ على شبابٍ طوباوى ، مفقودٍ بالفعل ، على أية حال . لأن الجسد الذى يطرحُ وجوده للتساؤل نصف ميت بالفعل ، وعقيدة الجسد الراهنة شبه - الیوجية ، شبه - النشوانية هى انشغال مأتى . والعناية التى يوليها له المرء حياً ترسم صورة مسبقة للزينة التى سيكتسبها فى الدور الجنائزية ، بالابتسامة الموصولة *branché* بالموت.

هذا الوصل *branchement* يفسّر كل شيء . ليس الأمر أن تكون ولا حتى أن تملك جسدا ، بل ان تكون موصولاً بجسدك . موصولاً بالجنس ، موصولاً برغبتك الخاصة . متصلاً بوظائفك ذاتها مثلما بأقطاب طاقة أو بشاشات فيديو . لَدَيَّة موصولة : الجسد سيناريو تسرى مرثية القواعد الصحية الغربية المكرسة له خلال المراكز التي لاتحصى للياقة البدنية ، وبناء الأجسام ، للتنشيط والمشابهة ، التي تمتد من فينيس Venice الى توبانجا كانيون Tupanga Canyon ، وتشهد على هوسٍ جماعى بلا جنس .

وينظر هذا وسواسٌ آخر : وسواس أن يكون المرء موصولاً بمخّه ذاته . إن ما يتأمله الناس على شاشة **الوورد بروسيسور** [معالج الكلمات] ، هو عمل مخهم ذاته . لم يعد ما نسعى لقراءته هو الكبد أو الأحشاء ، ولا حتى القلب أو النظرة ، بل المخ ببساطة ، الذي نودّ جعل المليارات من وصلاته مرئية ، ونراقب عملها مثل لعبة فيديو . كل هذا الترفع الذهني والإلكتروني ينطوى على الكثير من التصنع - فبعيدا عن كونه علامة على أنثروبولوجيا أرقى ، لا يعدو أن يكون علامة على أنثروبولوجيا تبسيطية ، يُختزل فيها الكائن البشري الى مجرد زائدة طَرَفِيَّة للعمود الفقري . لكننا لا يجب أن نقلق إزاء ذلك : فكل هذا أقل علميةً ووظيفيةً مما يُعتقد . إن كل ما يبهرننا هو **استعراض spectacle** المخ و أدائه . وما نودّ أن نراه بأعيننا هو تتابع أفكارنا - وهذه غيبية في حد ذاتها.

*

من هنا ، الأكاديمي الذي يصارع مع كومبيوتره ، مصحّحاً ، و منقّحاً ، وصاقلاً دون توقف ، جاعلاً من هذه الممارسة نوعاً من التحليل النفسي الذي لا ينتهي ، مستذكراً كل شيء في محاولة لتجنب النتيجة النهائية ، لتأجيل لحظة حلول الموت ، وتلك اللحظة الأخرى المصيرية ، لحظة الكتابة ، بفضل تغذية إرتجاعية *feed-back* أبدية مع الآلة . إنها أداة رائعة للسحر الخارجي - فكل تفاعل ، في الحقيقة ، يرجع دائما الى تبادل لا ينتهي مع آلة ما - أنظر الى الطفل وكومبيوتره في المدرسة : أعتقد أننا قد جعلناه متفاعلاً ، منفتحاً على العالم ؟ لقد نجحنا بالضبط في خلق دائرة مغلقة *circuit intégré* تضم الطفل والآلة . أما المثقف ، فقد وجد أخيراً المعادل لما يحصل عليه المراهق من جهاز الستيريو والووكمان: نزع - التسامي الاستعراضى للفكر ، الصورة البيانية المتحركة *videographie* لمفاهيمه !

*

في روكسى ، يشرف البار العازل للصوت على حلبة الرقص مثلما تتحكم الشاشات في قاعة مراقبة جوية أو تطلّ كابينة الفنانين على استوديو تلفزيوني . الصالة وسط متألّلي بضوء الفلورسنت - بكشافات ، ومؤثرات دوار ، وراقصين غارقين في أشعة الضوء - نفس التأثيرات التي نجدها على شاشة **والجميع واعون بذلك** . اليوم ، ما من إخراج مسرحي للأجساد ، و ما من عرض يمكن أن يجرى دون شاشة تحكّم - لا ليرى المشاركون أنفسهم أو يتأملونها ، بفعل المسافة وسحر المرأة : لا ، بل كانكسار لحظي ودون عمق . الفيديو ، في كل مكان ، ليس سوى هذا : شاشة انكسارٍ نشوان لم تعد تشبه الصورة التقليدية ، ولا المشهد أو الطابع المسرحي التقليدي ، و لا تفيد مطلقاً في تقديم أداء أو في تأمل الذات ، بل ان هدفها هو أن تكون موصولة

بذاتها *etre branché sur soi meme* . ودون هذا الوصل الدائري ، دون هذه الشبكة الموزعة واللحظية التي يخلقها مخ ، أو شيء ، أو حدث ، أو خطاب ، أثناء وصلها بذاتها ، دون هذا الفيديو الدائم ، لم يعد ثمة معنى لأي شيء اليوم . لقد حلت مرحلة الفيديو محل مرحلة المرأة .

ليست هذه نرجسية ، ومن الخطأ إساءة استخدام هذا اللفظ لوصف هذا التأثير . ليس ما يتطور حول ثقافة الفيديو أو الستيريو مخيلاً نرجسية ، بل هو تأثير إحالة ذاتية متولّدة ، ماسّ كهربى يصل الشيء بمثيله على الفور ، وبذلك يؤكد في نفس الوقت كثافتهما السطحية وتفاوتهما في العمق .

هذا هو المؤثر الخاص *l'effet spécial* لعصرنا . وتنتمي إليه أيضا نشوة البولارويد: الحصول بشكل متزامن تقريبا على الشيء وصورته ، كأنما قد تحققت تلك الفيزياء، أوالميتافيزيقا القديمة، للضوء، التي فيها يفرز كل شيء أقراناً ، أو صوراً سالبة لذاته ، نلتقطها نحن بنظرتنا . إنه لحلم . إنه التحقق المادي البصري لصيرورة سحرية . إن صورة البولارويد مثل غشاء نشواني سقط من الشيء الواقعي .

*

لك أن توقف حصانا مندفعاً ، لكنك لا توقف ممارس رياضة الجرى *jogger* وهو يجرى . بالزبد في فمه ، مركزاً انتباهه على العدّ التنازلي الداخلي ، على اللحظة التي يصل فيها الى مستوى أرقى ، لا توقفه خصوصاً لتسأله عن الساعة ، فسوف يلتهمك . ليس بين أسنانه شكيمة يعضّ عليها، لكنه ربما يحمل ثقالات في يديه ، أو أثقالاً حول خصره (أين مضى الزمن الذي كانت الفتيات تلبسن فيه خلاخيل ؟) . ما كان يبحث عنه مار سمعان العمودي (4) من القرن الثالث في الحرمان و في السكون الفخور ، يبحث هو عنه في الإنهاك العضلي لجسده . إنه شقيق في إماتة الجسد لأولئك الذين ينهكون أنفسهم بإخلاص في مراكز اللياقة البدنية ، على آلات معقدة ذات بكرات مطلية بالكروم وعلى معدات طبية غريبة ومرعبة . ثمة خطّ مباشر يفضى من أدوات التعذيب في العصور الوسطى ، مروراً بإيماءات خط الإنتاج الصناعي ، وحتى تقنيات اللياقة البدنية بواسطة المعدات الميكانيكية الغريبة . مثل الحمية الغذائية [الرجيم] ، وبناء الأجسام ، والعديد من الأشياء الأخرى ، فإن الجرى هو شكل جديد من العبودية الطوعية (وهو أيضا شكل جديد من الخيانة الزوجية) .

*

من المؤكد أن ممارسى الجرى هم القديسون الحقيقيون لأيام العالم الأخيرة وأبطال قيامة ناعمة . فليس ثمة ما يستحضر نهاية العالم أكثر من رجل يجرى وحيدا الى الأمام على شاطئ بحر ، تلهه أنغام الووكمان ، وتسبّجه التضحية الانفرادية بطاقته ، غير مبال حتى بالكوارث لأنه لم يعد يتوقع دماره إلاّ من نفسه ، إلاّ من استنفاد طاقة جسده لا جدوى منه في نظره هو ذاته . كان البدائيون اليائسون ينتحرون بالسباحة في عرض البحر حتى تخور قواهم ، أما ممارس الجرى

فينتحر بقطع الشاطئ جبهة وذهاباً . بعينين زائغتين ، واللعب يسيل من فمه ، لا توقفه ، وإلا ضربك ، أو واصل الرقص أمامك مثل ممسوس .

التعاسة الوحيدة التي يمكن أن تقارن بهذا هي تعاسة رجل يأكل وحيداً ، منتصباً على قدميه في قلب المدينة . يرى المرء الناس يفعلون ذلك في نيويورك ، الحطام البشري لحسن المعاشرة ، الذين لم يعودوا حتى يخفون أنفسهم ويأكلون البقايا علناً . لكن هذا مازال ينتمي للبؤس الحضري ، الصناعي . أما آلاف الرجال الوحيدة الذين يجرون كل بمفرده ، دون أي اعتبار للآخرين ، بفيض ستيريوفوني في رؤوسهم ينساب الى نظراتهم ، فهذا هو عالم **عداء النصل** *Blade Runner* ، إنه عالم ما بعد الكارثة . ألا يشعر المرء حتى بالضوء الطبيعي لكاليفورنيا ، ولا بحريق الجبال ذاك الذي حملته الرياح الساخنة الى مسافة عشرة أميال في قلب البحر ، ليف بدخانه منصات البترول البحرية ، ألا يرى المرء شيئاً من هذا كله ويواصل الجري بعناد بدافع نوع من الجلد الليمفاوي ، حتى الاستنزاف القرباني ، فهذه علامة مما وراء القبر . إنها مثل البدين الذي لا يكف عن السمنة ، مثل الاسطوانة التي تدور الى مالا نهاية في نفس التجويف ، مثل خلايا ورم ينتشر ، مثل كل ما فقد صيغة التوقف . المجتمع برمته هنا ، بما في ذلك جزؤه النشيط والمنتج ، الكل يجرون الى الأمام لأنهم فقدوا صيغة التوقف .

*

كل هذه الثياب الثقيلة ، أردية الجري *jogging suits* ، السراويل القصيرة الفضفاضة والأقمصة القطنية المتهذلة ، [الملابس المريحة] *easy clothes* : كلها أسمال ليلية ، وكل أولئك الذين يجرون ويسكرون مسترخين لم يخرجوا في الحقيقة من عالم الليل . إذ أنهم بفعل ارتدائهم لتلك الملابس المتهذلة ، صارت أجسادهم هي التي تتهدل في ملابسهم ، وهم أنفسهم يتهدلون في أجسادهم ذاتها .

ثقافة أنوركسية (5) *anorexique* : ثقافة الاشمنزاز ، والطرْد ، والتقيؤ ، والنَبْذ . المميزة لفترة بدانة ، وتشبع ، ووفرة مفرطة .

الشخص الأنوركسي [الفاقد للشهية بشكل مرضي] يتمثل هذه الثقافة مسبقاً بطريقة شعورية تقريباً ، بمحاولة تحاشيها . إنه يرفض النقص . يقول : لا ينقصني شيء ، ومن ثم لن أكل . والأمر بالعكس ، مع البدين : يرفض الامتلاء ، التخمّة . يقول : ينقصني كل شيء ، ومن ثم سأكل أي شيء مهما كان . الأنوركسي يتحاشى النقص بالخواء ، والبدين يتحاشى الامتلاء بالإفراط . وكلاهما حلّان نهائيان للعلاج بالداء *homéopathiques* ، حلّان بالإبادة .

أما ممارس الجري فلديه حل آخر ، فهو يتقيأ نفسه على نحو ما ، يتقيأ طاقته خلال الجري أكثر مما يبذلها . عليه أن يبلغ نشوة الإنهاك ، الحالة العليا للإفناء الميكانيكي ، مثلما يستهدف الأنوركسي الحالة العليا للإفناء العضوي ، نشوة الجسد الخاوي ، ومثلما يستهدف البدين الحالة العليا لإفناء الأبعاد : نشوة الجسد الممتلئ .

*

آخر هاجس للرأى العام الأمريكى : الانتهاك الجنسى للأطفال (sexual abuse). ويحدد مرسومٌ أن رعاية الأطفال فى سن صغيرة يجب أن يقدمها شخصان ، خشية وقوع انتهاكات جنسية لا يمكن التحقق منها . وفى نفس الوقت ، تزيّن صور الأطفال المختفين حقائب السوبرماركت .

حماية كل شىء ، كشف كل شىء ، إحتواء كل شىء - مجتمع حواذى .

Save time. Save energy. Save money. Save our souls - مجتمع خوف مرضى .

Low tar. Low energy. Low calories. Low sex. Low speed - مجتمع أنوركسى .

الغريب أنه ، فى هذا العالم الذى يتوفر فيه كل شىء بإفراط ، يجب إنقاذ كل شىء ، والاقتصاد فى كل شىء . هل هو وسواس مجتمع فتى ، مهموم بحماية مستقبله ؟ الانطباع الناشئ هو بالأحرى انطباع استشعار تهديد ، خبيثٌ بقدر ما هو غير مبرر . الإفراط هو الذى يولّد هلوسة من نوع الارتداد الى النقص والعوز ، يجب تحاشيه بانضباط العلاج بالداء . ليس ثمة أسباب أخرى لهذه الحمية الغذائية ، لهذا الرجيم الجماعى ، والضبط البيئى ، لهذا الإهلاك للأجساد والذات . مجتمع بأسره يُنظّم لتجنب انتقام آلهة متخمة ، تختنق من الإفراط . وبالطبع ، فإن مشكلتنا الأساسية اليوم هى مقاومة البدانة .

*

إحصاء كل شىء، تخزين كل شىء، استذكار كل شىء.

من هنا الأفيال التى يلفها القار الأسود، وتتحجر عظامها فى لزوجته السوداء، المعدنية، مع الأسود، وحيوانات الماموث، والذئاب التى كانت تجوب سهول لوس أنجلوس هذه. كانت هذه الحيوانات أولى ضحايا تدفق البترول، فيما قبل التاريخ. واليوم جرى تحنيطها للمرة الثانية فى هانكوك پارك، فى متحف تعليمى لما قبل التاريخ. يتم تقديم كل هذا، وفق المعيار الأخلاقى، باقتناع - فالأمريكيون أهل اقتناع، مقتنعون بكل شىء ويسعون الى الإقناع. وأحد جوانب حسن نيتهم هو إصرارهم العنيد على إعادة إنشاء كل ما ينتمى الى ماضٍ وتاريخ لم يكونا يخصانهم، بل انهم دمروهما أو اختلسوهما الى حدٍ بعيد. قلاع عصر النهضة، الأفيال المتحجرة، الهندود فى المعازل، أشجار السيكيويا فى صور ثلاثية الأبعاد، الى آخره.

طائفة المورمون فى صولت ليك سيتى، الذين يُحصون فى كومبيوتراتهم كل النفوس المعروفة فى الأقطار المتحضرة (البيضاء) ، لا يفعلون سوى ما يفعله فى كل مكان، وباستمرار، مجموع الأمريكيين، بروحهم التبشيرية. لا يكون الوقت متأخراً أبداً لإحياء الأصول. هذا هو قدرهم : فحيث فاتهم أن يكونوا باكورة التاريخ، فسوف يكونون باكورة من يخلّد كل شىء بإعادة إنشائه (هذا التحجر الذى استغرقت الطبيعة ملايين السنين فى تحقيقه ، سينجحون اليوم فى تحقيقه على الفور بوضع الأشياء فى متحف). لكن مفهوم الأمريكيين عن المتحف أوسع من مفهومنا بكثير. فكل شىء فى نظرهم يستحق الحماية، والتحنيط، والترميم. كل شىء هو موضوع ميلادٍ ثانٍ، الميلاد الأبدى للشبيه simulacre . الأمريكيون ليسوا مبشرين فحسب، بل أنهم من أنصار

إعادة التعميد * anabaptistes: وحيث فاتهم التعميد الأصلي، فإنهم يحملون بتعميد كل شيء مرة ثانية، ولا يمنحون قيمة إلا لهذا الطقس المقدس الأخير، الذى هو، كما نعلم، تكرر للأول، لكن كشيء أكثر حقيقة. وهذا هو التعريف الأكمل للشبيه. كل أنصار إعادة التعميد طائفون، وعنيفون أحياناً. والأمريكيين ليسوا استثناءً من ذلك. من أجل إعادة إنشاء الأشياء فى شكلها المضبوط، من أجل تقديمها فى يوم الدينونة، فإنهم على استعداد للتدمير والإبادة - توماس مونزر(6) Thomas Münzer كان من أنصار إعادة التعميد.

ليس من قبيل الصدفة أن المورمون هم من يملكون أكبر مشروع تخزين بيانات كومبيوترى فى العالم: إحصاء عشرين جيلاً من النفوس الحية فى كل بلدان العالم، وهو إحصاء يُعدُّ تعميداً جديداً ووعداً بالخلاص. لقد أصبح إضفاء الطابع الإنجيلي مهمةً متحوّلين، قادمين من الفضاء الخارجى، وإذا كان قد تقدّم (؟) على هذا النحو، فذلك بفضل أحدث تقنيات تخزين البيانات، وإذا كان هذا التخزين قد أصبح ممكناً، فذلك بفضل النزعة البيوريتانية العميقة للمعلوماتية، وهى تخصص شديد الكالفنية (7) calviniste والمشيخانية (8) presbyterienne، ورث الجمود الكلى النزعة والعلمى لتقنيات تحقيق الخلاص. إن مناهج الكنيسة الكاثوليكية المناهضة - للإصلاح، بممارساتها الطقسية الساذجة، وعباداتها، ومعتقداتها العتيقة والشعبية، ما كان لها أبداً أن تنافس هذه الحادثة.

*

Executive Terminal

Basic Extermination

Metastatic Consumption

أصبح البقاء survie موضوع الساعة فى كل مكان، كأنما بفعل قَرَفٍ من الحياة أو رغبة جماعية فى الكارثة (لكن لا يجب المبالغة فى أخذ هذا على محمل الجد: فإنه أيضاً لعبٌ بالكارثة). من المؤكد أن كل عتاد البقاء ذاك، بما فى ذلك الحمية الغذائية، والإيكولوجيا، وحماية أشجار السيكيويا، وحيوانات الفقمة، أو الجنس البشرى، يميل الى البرهنة على أننا على قيد الحياة (مثلما تميل كل الحوادث الخيالية الى البرهنة على أن العالم الواقعى واقعى جداً). لكن ذلك ليس مؤكداً تماماً. ليس فقط لأن حقيقة أننا نحيا ليست مُبرهنةً حقاً، بل كذلك لأن مفارقة هذا المجتمع أن المرء لم يعد يستطيع حتى أن يموت، لأنه ميت فعلاً. . . هذه هى الإثارة الحقيقية. وهى لا تأتى من الخطر النووى فحسب، بل كذلك من سهولة العيش، التى تجعل منا جميعاً باقين على قيد الحياة survivors. مع السلاح النووى، لن يكون لدينا الوقت لنموت ولا الوعى بأننا نموت. لكننا منذ الآن، فى هذا المجتمع ذى الحماية المفرطة، لم يعد لدينا أدنى وعى بالموت، لأننا عبرنا بشكل غير محسوس الى حالة من سهولة العيش القصوى.

خلقت الإبادة تلك الحالة، فى شكلٍ استباقي. وما تم انتزاعه من نزلاء معسكرات الموت، كان ذات إمكانية السيطرة على موتهم، امكانية اللعب، وحتى المقامرة بموتهم، جعله تضحية: سُلِبَت منهم القدرة على الموت. وهذا ما يجرى لنا جميعاً، بجرعات بطيئة بالعلاج بالمثل

homeopathiques، بفضل تطور نظامنا ذاته. يستمر الانفجار والإبادة (أوشفيتز و هيروشيم)، وقد اتخذنا فقط شكلاً وبائياً متقيحاً، لكن التفاعل المتسلسل يستمر، التضاعف بالعدوى، الانتشار الفيروسي والبكتيري. والخروج من التاريخ هو، على وجه الدقة، استهلال هذا التفاعل المتسلسل.

الرغبة الضارية في البقاء (وليس العيش) هي أحد أعراض هذه الحالة، ولاشك أنها العلامة الأشد إقلاقاً، على انحطاط الجنس البشري. فلو نظرنا إلى الأشكال التي تأخذها هذه الرغبة الآن - المخابىء ضد الحرب النووية، والحفاظ على الأنسجة الحية بالتبريد cryogenisation، والعلاج بالضغط العالي - لوجدنا أنها أشكال الإبادة بالضبط. تجنباً للموت، يختار المرء أن يسلم نفسه لفقاعة حماية، مهما كانت. وبهذا المعنى، يجب أن نعتبر علامة مطمئنة حقيقة أن الناس قد فقدوا سريعاً الاهتمام بالحماية النووية (فقد تحولت سوق المخابىء إلى مجرد سوق راقية، مثل سوق لوحات كبار الرسامين أو سوق اليخوت). يبدو أن الناس، وقد سئموا الابتزاز النووي، قرروا ألا يستسلموا له وأن يتركوا تهديد الدمار معلقاً فوقهم في الهواء، ربما بشعور غامض بقلة حظه من الواقعية. وهذا مثلاً على رد فعل حيوى تحت قناع التسليم. "إذا كان لابد من الموت، فالأفضل أن يكون في الهواء الطلق من أن يكون في تابوت تحت الأرض." فجأة، يوضع حدٌ لابتزاز البقاء، وتستمر الحياة.

السيناريو الضخم للتهديد النووي، المفاوضات المسرحية، "حرب الكواكب"، سئم الجميع كل هذا التبشير بالقيامة، ويدافعون عن أنفسهم في أعماقهم بنقص الخيال. وحتى حين أريد إيقاظ هذا الخيال بأفلام من قبيل *اليوم الأخير The last Day*، وما إلى ذلك، لم ينجح الأمر، فلم ينجح شيء أبداً في إضفاء المصادقية على هذا المشهد النووي، أو هذه البذاعة النووية. في هذه الأمور الدقيقة (مثلما في السرطان)، تكون نتيجة تخيل الموت هي التعجيل بالحدث المشؤم. إذن فهذه اللامبالاة الصامتة من جانب الجماهير تجاه الروح العام النووي pathos (سواء أتى من جانب القوى النووية أم من جانب مناهضى التسليح النووي) تمثل أملاً عظيماً وحقيقة سياسية ذات أهمية قصوى.

*

في قصة خيال علمي، يستيقظ بعض الأثرياء privilégiés ذات صباح، في موقع فيلاتهم الجبلية الباذخة، ليجدوا أنفسهم مطوّقين بحاجز شفاف وعصي الاجتياز، بجدار زجاجي انتصب خلال الليل. من أعماق بذخهم المكسو بالزجاج، مازالوا يتبينون العالم الخارجي، العالم الواقعي الذي انعزلوا عنه، والذي يصبح العالم المثالي على حين غرة، لكن بعد فوات الأوان. فالأثرياء سيموتون ببطء في صندوقهم الزجاجي، مثل أسماك حمراء. بعض مناطق حرم الجامعات [هنا] تترك لدى نفس الانطباع.

ضائعاً بين أشجار الصنوبر، والحقول، والأنهار (فهو مزرعة قديمة أهديت إلى الجامعة)، وعامراً بالمباني الصغيرة التي لا ترى بعضها البعض، مثل الكائنات البشرية التي تحيا فيها، هذا هو الحرم الجامعي لسانتا كروز. يشبه نوعاً ما مثلث برمودا، أو سانتا باربارا: كل شيء هنا يختفي، كل شيء يتم ابتلاعه. لا مركزية كلية، مجتمع كلي. على غرار المدينة المثالية،

على غرار الفرجة niche المثالية. لا شيء يلتقي، لا حركة المرور، ولا العمارة، ولا السلطة: لكن ذلك يجعل من المستحيل أيضا تسيير مظاهره: فأين يمكن الاجتماع؟ لا يمكن للمظاهرات إلا أن تدور في دوائر في الغابة، ولا يراها سوى المشاركين فيها. بين كل مناطق حرم الجامعات الكاليفورنية، الشهيرة باتساعها وسحرها، هذا هو أكثرها مثالية، وقربا من الطبيعة. إنه خلاصة كل ما هو جميل. صمم مبانيه معماريون مشهورون، ويمتد حوله خليجا الكرمل ومونتيري. إذا كان التعايش convivialité المستقبلي يتجسد في أي مكان، فإنه يتجسد هنا. إلا أن هذه الحرية التي تحميها في آن واحد بهجة الخضرة والانفتاح الأكاديمي تصبح بالضبط سجانة لنفسها، مطوقة بحماية فائقة طبيعية واجتماعية تنتهي بأن تنتج نفس أهوال عالم السجن (فنظام السجن، بفضل جدرانه ذاتها، يمكن أن يتطور، في شروط معينة، باتجاه اليوتوبيا أسرع من النظام الاجتماعي المفتوح). المجتمع هنا متحرر أكثر من أي مكان آخر، تم فتح المستشفيات النفسية، والنقل العام مجاني - لكن المفارقة أن هذا المثل الأعلى قد انغلق على نفسه، مثلما خلف جدار زجاجي.

وهم فردوسى ومنطوى على ذاته. إن "حائط الباسيفيكي"، إذا استخدمنا تعبير ليوتار، سيكون هو هذا الجدار الزجاجي الذي يسجن كاليفورنيا في نعيمها. لكن بينما كان مطلب السعادة أوقيانوسياً وتحررياً، فإنه يأتي هنا بالأحرى ملفوفا في سكون جنيني. هل ما زال ثمة عواطف، وجرائم قتل، وأعمال عنف في هذه الجمهورية الغريبة المبطنة، الزاخرة بالغابات، المسالمة، والهائلة conviviale؟ نعم، لكنه عنفٌ توحدي autistique، عنفٌ رد فعل. ما من جرائم عاطفية، بل حوادث اغتصاب، وجريمة قتل دسنة من النساء خلال عامين، قبل أن يتم العثور على القاتل. إنه عنفٌ جنينيٌ مجانيٌ مثل الكتابة الآلية، لا يمثل عدوانية فعلية، بقدر ما يمثل حنيناً للمحظورات القديمة (لماذا تزداد حوادث الاغتصاب مع ارتفاع مستوى التحرر الجنسي؟).

سنتمتالية غرف النوم المختلطة المفتوحة على الغابة، وكأن الطبيعة ذاتها يمكن أن تكون ودودة conviviale وأمومية، ضامنة لتفتح الجنس وإيكولوجيا العادات، كأن الطبيعة يمكن أن تنظر بتعاطف الى أي مجتمع بشري أياً كان، كأن بإمكان المرء أن يقيم معها، خارج عالم السحر القاسي، علاقة مختلفة عن العلاقة الرواقية stoique، عن العلاقة التي حددها الرواقيون، بين ضرورة عمياء، لا ترحم، وبين تحدٍ أكبر منها، حرية أكبر منها، يضعها المرء في مواجهتها. هنا، أخفى آخر أثر لأي قدرية بطولية. كل شيء هنا يغمره صالحٌ سنتمتالي مع الطبيعة، ومع الجنس، ومع الجنون، ومع التاريخ أيضاً (من خلال ماركسية جرت مراجعتها وتصحيحها).

إن سانتا كروز، مثلها مثل جوانب أخرى من أمريكا المعاصرة، بمثابة العالم بعد الحفل الماجن ، بعد الاختلاجات المجتمعية والجنسية. الناجون من الحفل الماجن - الجنس، والعنف السياسي، وحرب فيتنام، وحملة وودستوك (9) Woodstock، وكذلك النضالات العرقية والمناهضة للرأسمالية، وفي نفس الوقت عاطفة النقود، وعاطفة النجاح، والتكنولوجيات الصلبة، الى آخره، كل هذا كان يمثل الحفل الماجن للحدث - الناجون جميعهم هناك، يمارسون الجري في قبليتهم، الشبيهة بالقبليّة الإلكترونية لوادي السيليكون. خفض إيقاع العمل، نزغ المركزية، تكييف الهواء،

التكنولوجيات اللينة. إنها الجنة. لكن تعديلاً بالغ الضالة، تحولاً ببضع درجات، يكفي لجعلها تبدو جحيماً.

*

ثمة انقلابٌ في المجال الجنسي. بنهاية الحفل الماحن، بنهاية التحرر، لم يعد المرء يبحث عن الجنس، بل عن "جنوسته" (gender)، أى عن مظهره *look* وصيغته الجينية. لم يعد المرء يتراوح بين الرغبة وبين المتعة، بل بين صيغته الجينية وبين هويته الجنسية (التي يجب العثور عليها). هذه ثقافة شبقية أخرى، فبعد ثقافة المنع ("ما هي شروطك المسبقة للجنس؟ - يجب أن يكون الباب مغلقاً بالمفتاح، والأضواء مطفأة، وأن تكون أُمى فى ولاية أخرى")، هاهى ثقافة التساؤل عن تعريف المرء لذاته: "هى لى جنس؟ من أى جنس أنا؟ هل ثمة ضرورة للجنس فى نهاية المطاف؟ اين يكمن الاختلاف الجنسي؟" لقد ترك التحرر الجميع فى حالةٍ من عدم التحدد (إنه دائماً نفس الشيء: ففور أن تتحرر، تجد نفسك مجبراً على التساؤل عن تكون). بعد مرحلة انتصار، أصبح تأكيد الجنسية *sexualité* الأنثوية هشاً بقدر تأكيد الجنسية الذكورية. ولا يدري أحدٌ أين موقعه. لهذا السبب يمارس الناس الحب كثيراً، وينتجون الكثير من الأطفال: فهنا على الأقل، ثمة برهانٌ على أن الأمر بحاجةٍ الى شخصين، وبالتالي ما زال ثمة اختلاف. لكن ليس لزمن طويل. فإمرأة - العضلات *muscle-woman*، التى بمجرد تدريب عضلاتها المهبلية تبلغ حد الاستنساخ الدقيق للأيلاج الذكورى، تعدّ، بالفعل، مثالا جيداً على الإحالة الذاتية وعلى اقتصاد الاختلاف - لقد وجدت تصنيفتها على الأقل.

لكن المشكلة الأعم هى مشكلة غياب الاختلاف، المرتبط بتراجع الخصائص الجنسية المميزة. فالعلامات الخارجية للذكورة تتجه الى درجة الصفر، لكن كذلك تفعل علامات الأنوثة. وفى هذا المفترق نشهد بزوغ معبودين *idoles* جددٍ، يقبلون تحدى عدم التحدد ويلعبون على خلط النوعين. *Gender benders*. لا ذكوريين، ولا أنثويين، ولا مثليين أيضاً. بوى جورج *Boy George*، ومايكل جاكسون *Michael Jackson*، وديفيد بووى *David Bowie*... بينما كان معبودو الجيل الأسبق يجسدون شخصياتٍ متفجرة للجنس و اللذة، يطرح هؤلاء المعبودون الجدد على الجميع سؤال اللعب بالاختلاف وعدم تحددهم هم أنفسهم. انهم شخصيات استثنائية. فنظراً لانتقادهم لأية هوية، يسعى معظمهم للبحث عن "نموذج للجنوسة"، عن صيغة جينية. لا بد من العثور على سمة فارقة للتفرد. فلماذا لا يتم البحث عنها فى الموضة، أو فى علم الجينات؟ مظهر *look* فى الثياب أو مظهر فى الخلايا. أية حماقة تصلح، وأية رطانة. فسؤال الاختلاف أكثر محوريةً من سؤال المتعة. هل نشهد هنا طبعاً مشروطة، ما بعد حداثة، من تحرر جنسى تم تجاوزه الآن (لم يعد على الموضة، على أية حال)، أم أنه تحولٌ بيو-سوسيولوجى فى إدراكنا لذواتنا، يقوم على أساس اختفاء أولوية ما هو جنسى، تلك الأولوية التى ميّرت كل الحقبة الحديثة؟ *Gender Research: a New Frontier ?*

إذا وصلت الأمور الى نهايتها، فلن يكون ثمة ما هو ذكورى أو أنثوى، بل تبعثّر لأنماط جنسٍ فردية لا تُحيلُ إلا الى ذاتها، ويدير كلٌ واحدٍ منها نفسه باعتباره مشروعاً مستقلاً ذاتياً. نهاية الإغواء، نهاية الاختلاف، وانزلاقٌ صوب نسقٍ آخر من القيم. مفارقةٌ مذهلة: فربما أصبحت

الجنسانية من جديد مشكلةً ثانوية، مثلما كانت في غالبية المجتمعات السابقة، لا تتمتع بنفس أهمية الأنساق الرمزية الأقوى (الميلاد، المراتبية، الزهد، المجد، الموت). ستتم إقامة البرهان على أن الجنسية لم تكن في نهاية المطاف سوى أحد النماذج الممكنة، وليست أكثر هذه النماذج حسماً. لكن ماذا يمكن أن تكون اليوم هذه النماذج الجديدة (إذ أن كل النماذج الأخرى قد اختفت في هذه الأثناء)؟ ما يمكن أن نستشفه هو صعود نوع من المثل الأعلى الأدائي، من التحقق الجيني لصيغة المرء الخاصة. في عالم الأعمال، وفي الحياة العاطفية، في المشروعات أو في المتع، سيسعى كل فرد إلى تطوير برنامج الأمتل. سيكون لكل واحد شفرته، ولكل واحد صيغته. لكن سيكون لكل واحد أيضاً *مظهره look*، وصورته. هل سيكون ثمة، إذن، شيء من قبيل *مظهره look* جيني؟

*

إيرفين Irvine : وادي سيليكون جديد. مصانع إلكترونية دون فتحات [على العالم الخارجي]، مثل دوائر مغلقة. منطقة صحراوية مكرسة للأيونات والإلكترونات، متجاوزة للبشر، ناشئة عن قرارات لا إنسانية. وتشاء المفارقة أن يتم هنا، في تلال إيرفين، تصوير فيلم *كوكب القرد*. لكن، في المرج، تقول لنا السناجب الأمريكية أن كل شيء على ما يرام، أن أمريكا طيبة مع الحيوانات، ومع نفسها، ومع بقية العالم، أن في قلب كل واحدٍ سنجابٌ ناعس. كل فلسفة والت ديزني تأكل من يدك مع تلك الكائنات الصغيرة الجميلة ذات الفراء الرمادي. أما أنا فأعتقد على العكس أن وراء النظرة العذبة لكل واحد من هذه الكائنات يختبئ كائن بارد ومتوحش يترصدنا بشكل مرعب... وعلى نفس المرج الذي تمرح فيه السناجب تستقر لافقة لا أدري أي جمعية يسوع وضعتها: *Vietnam Cambodia Lebanon Grenada- We are a violent society in a violent world !*

*

ما من شيء طريف في الهالوين Halloween. فهذا الاحتفال الساخر يعكس بالأحرى مطلباً جهنمياً لانتقام الأطفال من عالم البالغين. يخيم تهديد هذه القوة الشريرة على عالم البالغين، ولا يعادله سوى تفانيهم تجاه الأطفال أنفسهم. لا شيء أشد فساداً من هذه الشعوذة الطفولية، الكامنة خلف كل التنكر والهدايا – يطفئ الناس الأنوار ويختبئون، خشية المضايقات. وليس من قبيل الصدفة أن يدس بعضهم الإبر أو شفرات الحلاقة داخل التفاحات أو قطع الحلوى التي يوزعونها على الأطفال.

*

حل الضحك في التلفزيون الأمريكي محل الكورس في المأساة الإغريقية. ضحك بلا هوادة، لا يكاد يفلت منه سوى الأخبار *news*، وتقارير البورصة، والنشرة الجوية. لكنك تظل تسمعه، بقوة الوسواس، خلف صوت ريجان أو كارثة جنود المارينز في بيروت، وحتى خلف الإعلانات. إنه وحش فيلم *Alien* الذي يجوس خلال كل دهاليز المركبة الفضائية. إنه المرح التهكمي لثقافة بيوريتانية. في الأماكن الأخرى، تُترك للمشاهدين مهمة الضحك. لكن هنا، يتم جلب ضحك

الجمهور الى الشاشة، ويندمج في الاستعراض. الشاشة هي التي تضحك ، وتتسلى. ولا يبقى لك سوى الوجود.

فيتنام على التلفزيون (هذا إطناب، فقد كانت هذه بالفعل حربا تلفزيونية). يحارب الأمريكيون بسلاحين أساسيين: الطيران والمعلومات. بمعنى القصف المادي physique للعدو والقصف الإلكتروني لبقية العالم. وهذان سلاحان غير أقليميين، بينما كل أسلحة الفيتناميين، كل تكتيكاتهم ناتجة عن الناس وعن إقليمهم.

وهذا هو السبب في أن الحرب كسبها كلا الجانبين: كسبها الفيتناميون على الأرض، وكسبها الأمريكيون في الفضاء الذهني الإلكتروني. وإذا كان الأولون قد فازوا بنصر إيديولوجي و سياسى، فقد صور الأخيرون فيلم *يوم القيامة الآن* *Apocalypse now*، الذى دار حول العالم.

*

الهاجس الأمريكي، هو أن تنطفئ الأضواء. فى المنازل تُترك الأنوار مضاعة طوال الليل. وفى الأبراج، تظل المكاتب الخالية مضاعة. وعلى الطرق السريعة *freeways* ، فى رائعة النهار، تمضى السيارات وفوانيسها مضاعة. وفى طريق بالمرز أفنيو *Palms Ave* بمدينة فينيس *Venice*، بولاية كاليفورنيا، تتركُ بقالة *grocery* صغيرة تباع البيرة، فى حى لا يسير فيه أحد فى الشارع بعد السابعة مساء، لوحة إعلانها النيون تومض وتنطفئ بالأخضر والبرتقال طوال الليل، فى الفراغ. ناهيك عن التلفزيون الذى يبيت أربعاً وعشرين ساعة، والذى غالبا ما يعمل بطريقة هذيانية فى حجرات المنزل الخالية أو فى غرف الفنادق غير المشغولة – مثلاً فى فندق بورتريفيل *Porterville*، حيث كانت الستائر ممزقة، والماء مقطوعاً، والأبواب تصفحها الريح، لكن على الشاشة الفلوريسنت فى كل غرفة كان المعلق يصف انطلاق مكوك الفضاء. لا شيء أكثر غموضاً من جهاز تلفزيون مفتوح فى غرفة فارغة، إنه أغرب حتى من رجل يكلم نفسه أو امرأة تقف حالمة أمام أوانى الطبخ. فكأنما يخاطبك كوكب آخر. فجأة، يكشف التلفزيون عن حقيقته: إنه فيديو لعالم آخر لا يخاطب أحداً فى نهاية المطاف، يقدم صورته دون مبالاة، غير مبالي حتى برسائله ذاتها (يمكن بسهولة تخيل أنه يواصل العمل بعد فناء البشرية). باختصار، فى أمريكا لا يقبلون أن يروا حلول الليل أو فترات الراحة، ولا يتحملون رؤية توقف الصيرورة *processus* التكنولوجية. يجب أن يعمل كل شيء طوال الوقت، يجب ألا يكون ثمة توقف فى قوة الانسان الاصطناعية، يجب إلغاء الطابع التناوبى *l'intermittence* للدورات الطبيعية (الفصول، الليل والنهار، الحرارة والبرودة) لصالح مُتَّصِلٍ وظيفى عبثى أحياناً (فى العمق يكمن نفس الرغز للطابع المتقطع للحقيقى والزائف: فكل شيء حقيقى، والطابع المتقطع للخير والشر: فكل شيء خير). يمكنك تفسير ذلك بالخوف أو الهاجس، والقول بأن هذا الإنفاق غير المنتج هو فعل جداد. لكن ما هو عبثىٌ مثيرٌ أيضاً للإعجاب. *skylines* **فخطوط الأفق** المضاعة فى قلب الليل، وأجهزة التكيف التى تبرد الموتيلات الخاوية فى الصحراء ، والضوء الصناعى فى رائعة النهار تتسم بشيء أخرق ومثير للإعجاب. هل هو ترفٌ أحرق لحضارة ثرية، قلقة رغم ذلك من انطفاء الأضواء مثلاً كان الصياد فى ليله البدائى؟ ثمة بعض الصدق فى هذا كله. لكن المذهل هو الانبهار بالاصطناع ، بالطاقة، بالفضاء، ليس الفضاء الطبيعى

فحسب: فالفضاء فسيح في رؤوسهم أيضاً.

*

شيدت كل القوى العظمى العالمية، ذات حين أو آخر، ساحتها التذكارية الصرحية، لتقدم منظورا موجزا للانهائية الإمبراطورية. لكن الأرتيك في تيوتيهواكان أو المصريين في وادي الملوك أو حتى لويس الرابع عشر في فرساي، كلهم شيّدوا هذه المجمعات بعمارة تخصهم. أما هنا، في واشنطن، فإن البانوراما الهائلة الممتدة من صرح لينكولن التذكاري Lincoln Memorial حتى الكابيتول Capitol مكونة من سلسلة متاحف متتابعة، تلخص عالمنا برمته من العصر الحجري إلى عصر الفضاء. ويمنح هذا المجموع كله طابع خيال علمي، كأنما أريد تجميع كل علامات المغامرة والثقافة الأرضيتين هنا أمام نظرة كائن من الفضاء الخارجي. فجأة، يبدو البيت الأبيض ذاته، الواقع مباشرة بالجوار ويسهر سراً على المجموع، يبدو كأنه متحف، متحف القوة العالمية، يتسربل بمسافةٍ وبياضٍ واقٍ.

*

لا شيء يعادل التحليق فوق لوس أنجلوس ليلاً. نوعٌ من الاتساع الشاسع المضيء، الهندسي، المتوهج، على مدى البصر، يندلع بين فرجات السحب. وحده جحيم هيرونيموس بوش Jérôme Bosch يمكنه أن يضارع هذا التأثير الجهنمي. وميضٌ غائم من كل المحاور، ويلشابير، لينكولن، صانسييت، سانتا مونيكا. بالتحليق فوق وادي سان فرناندو فالي، نصادف اللانهائية الأفقية، في كل الاتجاهات. لكن، فور أن نعبر الجبل، تداهم عيوننا مدينة أضخم عشر مرات. لن يكون البصر قد أحاط من قبل بمثل هذا الاتساع. البحر نفسه لا يعطي هذا الانطباع، فليس مقسماً في أشكال هندسية. وحتى الوميض المتقطع، المبعثر، للمدن الأوروبية لا يقدم نفس الخطوط المتوازية، ولا نقاط الزوال، ولا المنظورات الجوية. إنها مدن من العصر الوسيط. أما هذه المدينة فتكتف بالليل كل الهندسة المستقبلية لشبكات العلاقات الإنسانية، المتألئة في تجريدها، البراقة في امتدادها، الكوكبية في توالدها إلى مالا نهاية. إن ملهولاند درايف Mulholland Drive بالليل هي النقطة التي ينظر منها كائن فضائي إلى كوكب الأرض، أو بالعكس، هي النقطة التي ينظر منها ساكن الأرض إلى المدينة المتروبوليتانية الأشبه بالمجرة.

*

الفجر في لوس أنجلوس، فوق تلال هوليوود. يتملّك شعور مختلف بأن الشمس لم تفعل سوى أن تفتح فوق أوروبا لتأتي فتشرق حقاً هنا، فوق هذه الهندسة المستوية بضوئها الطازج تماماً، ضوء حافة الصحراء.

نخلات سامقة تتمايل أمام لوحة الإعلانات billboard الإلكترونية، العلامات الرأسية الوحيدة في هذه الهندسة المستوية.

في السادسة صباحاً، يُجرى رجلٌ مكاملة تليفونية من كابينة عمومية أمام بيفرلي تيراس Beverley Terrace. تنطفئ لوحات دعاية النيون الليلية، لتظهر اللوحات النهارية.

يكشف الضوء ويضيء في كل مكان غياب العمارة. هذا ما يضيف جمالا على هذه المدينة، الحميمة والدافئة مهما قيل عنها: حقيقة أنها تعشق أفقيتها اللامحدودة، مثلما يمكن لنويورك أن تعشق رأسيها.

*

Los Angeles Freeways

استعراض عفوى هائل لمرور السيارات. فعل جماعى كلى، يُخرجه السكان برمتهم، طوال الأربع والعشرين ساعة. بفضل اتساع الرقعة، ونوع التواطؤ الذى يربط كل هذه الشبكة من الشرايين، تبلغ دورة المرور هنا درجة عرض درامى وتنظيم رمزى. والسيارات ذاتها، بانسيابيتها وناقل السرعات الأوتوماتيكي، تخلق جواً على صورتها، يجعلك تندمج داخله بسلاسة، تتحول الى موجاته مثلما تتحول الى موجات قناة تلفزيونية. على نقيض طرقنا السريعة الأوروبية، التى تتشكل من محاور اتجاهية، استثنائية، وتظل أماكن طاردة (فيريليو)، فإن شبكة الفريووييز freeways [الطرق الحرة أو السريعة] مكاناً للاندماج (حتى أنه يقال أن ثمة عائلات تدور فيها باستمرار فى بيوت متحركة mobile home دون أن تخرج منها أبداً). هذه الشبكة تخلق حالة ذهنية مختلفة، الى حد أن يتخلى السائق الأوروبى فيها بسرعة عن ممارساته العدوانية الحاذقة، عن ردود فعله الفردية، ليتبنى قواعد هذه اللعبة الجماعية. نجد هنا شيئاً من حرية المرور فى الصحارى، لأن لوس أنجلوس، بفعل بنيتها الشاسعة، ليست سوى شذرة مسكونة من الصحراء. ومن ثم، فإن الفريووييز لا تنزع طبيعة المدينة أو المنظر الخلوى، بل تخترقه وتضيؤه دون أن تغير من الطابع الصحراوى لهذه المدينة الضخمة، وتستجيب بصورة مثالية للذة العميقة الوحيدة، لذة الاندماج فى حركة المرور.

*

بالنسبة لمن يعرف الطرق السريعة الأمريكية، تعدّ لافتات المرور بمثابة ترائيل. Right lane must exit [المسار الأيمن خروج إجبارى]. هذا الخروج الإجبارى صدمنى دوماً باعتباره علامة للقدر. على أن أخرج، أن أطرّد نفسى من هذه الجنة، أن أغادر هذا الطريق السريع المبارك، الذى لا يؤدى الى مكان، لكننى فيه بصحبة الجميع. إنه المجتمع الحقيقى الوحيد هنا، الدفء الوحيد، مجتمع الاندفاع، والدافع القهرى الجماعى، الدافع القهرى للقوارض التى تقتحم الطريق معاً بصورة انتحارية. لماذا يجب أن أنتزع نفسى لأعاود السقوط فى مسارٍ فردى، فى إحساسٍ عقيم بالمسؤولية؟ خروج إجبارى: هذه لعنة، لعنة اللاعب الذى يجرى فيه من الشكل الوحيد، العبثى والمجيد، للوجود الجماعى. Through traffic merge left [سيارات نهر الطريق تندمج الى اليسار] يقولون لك كل شيء، يُعلمونك بكل شيء. مجرد قراءة اللافتات التى لا غنى عنها للبقاء تخلق إحساساً غير عادى بالوضوح الانعكاسى، بـ"المشاركة" الانعكاسية، المباشرة والسلسة. إحساساً بالمشاركة الوظيفية، التى تناظرها إيماءات دقيقة بعينها. التدفقات التى تتعطف باتجاه طريق فينتورا فريووى وطريق سان ديجو فريووى لا تتفرق، بل تتوزع. فى كل ساعات النهار، يتشعب نفس العدد من السيارات باتجاه هوليوود، مثلما باتجاه سانتا

مونيكاً. طاقةٌ خالصة، إحصائية، انسيابٌ طقسى – فيما يضع انتظام التدفقات حداً للوجهات الفردية. إنه سحر الاحتفالات : أمامك الفضاء برمته، مثلما أمام الاحتفالات الوقت برمته.

*

المسألة ليست كتابة سوسولوجيا أو سيكولوجيا السيارة. المسألة أن تقود كى تعرف عن هذا المجتمع أكثر من كل التخصصات الأكاديمية مجتمعة.

طريقة اندفاع السيارات الأمريكية، انطلاقها بسلاسة، بفضل تغيير السرعات الأوتوماتيكي ونظام التوجيه المدعوم. انتزاع نفسها دون مجهود، والتهام الطريق بلا ضجة، والانزلاق دون ارتجاج (سطح الطرق والطرق السريعة رائع، يضاهي انسيابية الأداء الميكانيكي للسيارات)، والفرملة بسلاسة لكن فوراً، السير كأنك فوق وسادة هوائية، التخلص من وسواس ما سيأتى أمامك، وما ستتجاوز (هنا توافقٌ ضمنى على القيادة الجماعية، أما فى أوروبا فلا توجد سوى قواعد الطريق) - كل هذا يخلق خبرة جديدة بالفضاء، وبكل النظام الاجتماعى فى آن واحد. إن ذكاء المجتمع الأمريكى يكمن برمته فى أنثروبولوجيا لعادات القيادة - وهذه العادات يمكن أن تعلمنا أكثر مما تفعل كل الأفكار السياسية. اقطع عشرة آلاف ميل بالسيارة عبر أمريكا، وسوف تعرف عن هذا البلد أكثر من كل معاهد السوسولوجيا و العلوم السياسية مجتمعة.

*

لا شك أن المدينة أسبق فى الوجود من شبكة الطرق السريعة، لكن الأمر يبدو وكأن المدينة الضخمة قد شُيّدت حول هذه الشبكة الشريانية. نفس الشيء مع الواقع الأمريكى، الذى سبق الشاشة فى الوجود، لكن، مع الحالة التى عليها هذا الواقع اليوم، يدفعنا كلُّ شىء الى الاعتقاد بأنه قد شُيّد على أساس الشاشة، أنه انكسارٌ لشاشةٍ هائلة، ليس كتلاعب للظلال الأفلاطونية، بل بمعنى أن ضوء الشاشة كأنه هو الذى يجلب كل شىء ويحيطه بهالة. مع التدفق والحركة، فإن الشاشة وانكسارها محدّدان أساسيان للأحداث اليومية. ويُنتج امتزاج الحركى والسينمائى تصوراً عقلياً، إدراكاً كلياً مختلفاً عن إدراكنا. هذه الأسبقية للحركة، للشاشة على الواقع، لم نعهدها أبداً على هذا النحو فى أوروبا، حيث تحتفظ الأشياء فى الأغلب بالشكل الاستاتيكي للموطن *territoire* والشكل المحسوس للماهيات.

*

ليست السينما حيث نظنها، فى الحقيقة، وليست، بالتأكيد، فى تلك الاستديوهات التى يتوافد إليها الناس، تلك الأقسام الفرعية لديزنى لاند – استوديوهات يونيفرسال، وبارامونت، وغيرها. وإذا اعتبرنا أن أمريكا تجسّد جوهر الغرب كله، وكاليفورنيا تجسّد جوهر أمريكا، وتجسّد إم جى إم MGM و ديزنى لاند جوهر كاليفورنيا، فإننا نشهد هنا الكون المصغّر للغرب.

ما يُقدّم لك هنا هو انحطاطٌ واستهزاءٌ بالوهم السينمائى، مثلما تُقدّم فى ديزنى لاند محاكاة تهكمية لعالم الخيال. تم اختزال الحقبة الباذخة للصور والنجوم الى بعض مؤثرات الزوابع الصناعية، والمبانى الزائفة البائسة، والحيل الصببانية التى يتظاهر الحشد بالانبهار بها حتى لا يعانى من فرط الخديعة. *Ghost towns, ghost people* [مدنٌ أشباح، بشرٌ أشباح]. كل هذا ينضح

بنفس وحشة صانسييت أو بولفار هوليوود، وتخرج منه بإحساس أنك خضعت لاختبار مشابهة طفولى. أين السينما؟ فى كل مكان بالخارج، فى كل مكان بالمدينة، إنها ذلك الفيلم والسيناريو الدائمان والرائعان. فى كل مكان ماعدا هنا.

*

ليس أقل أوجه سحر أمريكا أن البلد كله سينمائى، خارج قاعات السينما. فأنت تقطع الصحراء كأنها [ديكور] فيلم ويسترن، والمدن الكبرى كأنها شاشة من العلامات والصيغ. إنه نفس الإحساس الذى ينتابك حين تخرج من متحف إيطالى أو هولندى لتدخل فى مدينة تبدو كأنها ذات انعكاس اللوحات التى رأيتها، كأنها انبثقت من تلك اللوحات، وليس العكس. المدينة الأمريكية بدورها تبدو كأنها انبثقت حية من السينما. و للإمساك بسرّها، لا يجب من ثم الذهاب من المدينة الى الشاشة، بل من الشاشة الى المدينة. من هنا لاكتسب السينما شكلا استثنائيا، بل تضيف على الشارع، والمدينة بأسرها جوا أسطوريا، وهنا يكمن سحرها حقا. ومن هنا لا تكون عبادة النجوم ظاهرة ثانوية، بل الشكل المجيد للسينما، تجليها الأسطورى، آخر الأساطير الكبرى لحدائتنا. والسبب بالضبط هو أن النجم المعبود l'idole ليس سوى صورة خالصة معدية، مثل أعلى متحقق بعنف: يقال أن النجوم المعبودين يجعلونك تحلم – لكن الحلم ليس هو الانبهار بالصور. نجوم الشاشة محايثون فى تتابع الحياة كأنها سلسلة من الصور. يمثلون نسقا من الموضوعات الفاخرة سابقة-التجهيز، توليفات لامعة من النماذج النمطية للحياة وللحب. لايجسدون سوى عاطفة واحدة: عاطفة الصورة، ومحايثة الرغبة للصورة. انهم لا يجعلوننا نحلم، لأنهم هم الحلم، ولهم كل خصائصه: انهم ينتجون تأثيرا قويا بالتكثيف (بالتبلور)، و بالمجاورة (فلهم عدوى فورىة)، ويتمتعون، فى المقام الأول، بخاصية التجسيد البصرى الفورى (Anschaulichkeit) للرغبة، وهذا أيضا من خواص الحلم. ومن ثم فإنهم لا يقودوننا الى الخيال الحالم أو الجنسى، انهم منظورية visibilite فورىة، تدوين فورى، كولاَج مَادى، ترسُب للرغبة. انهم أصنام، موضوعات صمنية، لا علاقة لها بعالم الخيال، بل بالاختلاق fiction المادى للصورة.

*

ستقام فى لوس أنجلوس عام 1989 دورة الألعاب الأولمبية الثورية، فى العيد المئوى الثانى للثورة الفرنسية. تعبر شعلة التاريخ الى الشاطئ الغربى، وهذا أمر عادى، فكل ما يختفى فى أوروبا ينبعث من جديد فى سان فرانسيسكو. يمكن أن نتوقع إعادة تشكيل المشاهد الثورية الكبرى فى هولوجرامات عملاقة، وأرشيفات ضافية، ومكتبة سينمائية كاملة، بأفضل الممثلين، وأفضل المؤرخين – وبعد قرن من الآن لن يعود ثمة فرق، سيكون الأمر كأن الثورة قد وقعت هنا. لو غمرت الحمم البركانية فجأة فيلا جيتى فى مالىبو، فأى فرق، خلال بضعة قرون، سيكون بينها وبين أطلال بومبى؟

ماذا سيفعل منظّمو المئوية الثانية لو اندلعت ثورة جديدة من الآن وحتى 1989؟ مستحيل، هذا أمر مستبعد. ورغم ذلك لا يسعك إلا أن تتمنى أن يقع الحدث الفعلى ويقطع دائرة الشبيه، أو أن يتحول الشبيه ذاته الى كارثة. بنفس الطريقة، يتمنى المرء فى كل لحظة، فى استوديوهات

يونيفرسال، أن تتحول المؤثرات الخاصة الى دراما حقيقية. لكن ذلك ليس سوى نوستالجيا أخيرة استغلتها السينما ذاتها (Westworld, Future World).

*

الألعاب الأولمبية – حدث كلى، مشاركة جماعية فى الاحتفاء القومى بالذات. **لقد فعلناها!** *We did it!* نحن الأفضل. على طريقة ريجان. كان لابد من لينى ريفنشتال (10) Leni Riefenstahl جديدة لتصوير فيلم **برلين 1936** الجديد هذا. هذا الحدث الذى تتولاه برمته جهات راعية، البهيج تماما، **النظيف** تماما، والإعلانى تماما. لا حوادث، ولا كوارث، ولا إرهاب، ولا اختناقات مرورية على الطرق السريعة، ولا فزع و... ولا سوفيتات. باختصار، صورة لعالم مثالى، تُقدّم للعالم بأسره. لكن، بعد ذروة النشوة القومية، يجتاح أهالى لوس أنجلوس ما يشبه السوداوية الجماعية. مما يبين مقدار ما زالت عليه أن هذه الحاضرة الضخمة من إقليمية.

*

فى هذه الحاضرة الضخمة الطاردة مركزيا، إذا ترجلت من سيارتك، صرت منتهكاً للقانون، ومنذ اللحظة التى تشرع فيها فى المشى، تصبح تهديدا للنظام العام، مثل الكلاب الضالة على الطرق. الوحيدون الذين لهم الحق فى المشى هم مهاجرو العالم الثالث. هذا هو امتيازهم، بمعنى معين، ويرتبط بامتياز احتلالهم لقلب الحواضر الفارغ. وبالنسبة للآخرين، تحول المشى، والاجهاد، والنشاط العضلى الى سلع نادرة، الى **خدمات services** تباع بثمن باهظ. هكذا تنقلب الأمور على نحو تهكمى. وبالمثل، عادة ما تكون طوابير الانتظار أمام المطاعم الفاخرة أو النوادى الليلية المسائرة للموضة أطول من طوابير مطاعم الشوربة الشعبية. هذه هى الديمقراطية. فعلاطات الفقر المدقع أمامها على الأقل فرصة أن تصبح على الموضة.

*

إحدى المشكلات النوعية للولايات المتحدة، هى المجد، ويرجع ذلك جزئيا الى ندرته البالغة فى أيامنا، لكنه يرجع أيضا الى ابتذاله البالغ. "فى هذا البلد، سيكون كل شخص مشهورا لعشر دقائق على الأقل" (11) (أندى وار هول). وهذا صحيح. خذ مثلا ذلك الرجل الذى ركب الطائرة الخطأ ووجدها قد نقلته الى أوكلاند Auckland، بنىو زيلندا، بدل أوكلاند Oakland، بالقرب من سان فرانسيسكو. جعله هذا الحادث بطل الساعة فعليا، أجريت معه حوارات فى كل مكان، ويصورون فيلما عنه. فى هذا البلد، لا يرجع المجد الى الفضيلة الأسمى، ولا الى العمل البطولى، بل الى تفرد أتفه تقلبات القدر. ثمة الكثير منه للجميع، إذن، فكلما ازداد مجمل النظام امتثالا، ازداد عدد ملايين الأشخاص الذين يميزهم شذوذ تافه عن المألوف. وأدنى تذبذب لنموذج إحصائى، أو أدنى نزوة كومبيوتر، كافيان لإسباغ هالة من المجد العابر على أى سلوك شاذ، مهما بلغت تفاهته.

خذ أيضا هذا المسيح الغارق فى البياض الذى يحمل صليباً ثقيلاً فى شارع مين ستريت، بمدينة فينيس. الجو شديد الحرارة. يود المرء أن يقول له أن هذا قد جرى بالفعل منذ ألفى عام. لكن هذا

هو المقصود بالضبط ، فهو لا يخترع. إنه يحمل صليبه ببساطة مثلما يضع آخرون على سياراتهم شارة: **المسيح ينقذ. إعرف المسيح، Jesus saves, Know Jesus** وما الى ذلك. يمكن للمرء أن يلفت نظره الى أن أحدا لا يراه على الإطلاق، الى أنه يمر محاطا بلا مبالاة وسخرية الجميع. لكنه سيجيب بأن هذا بالضبط ما جرى منذ ألفى عام.

*

قمة فندق بونافينتشر Bonaventure. بنيته المعدنية ونوافذه الزجاجية تدور ببطء حول الكوكبتيل بار. لا تكاد تُلاحظ حركة ناطحات السحاب بالخارج. ثم ينتبه المرء الى أن قاعدة البار هي التي تتحرك، وبقية المبنى ثابتة. وأخيرا، أتمكن من رؤية المدينة بأسرها تدور حول القمة الساكنة. إحساس بالدوار، يستمر داخل الفندق نتيجة الثقافات الفضاء الشبيهة بالمتاهة. هذه العمارة التوهمية الخالصة، هذه اللعبة gadget الفضائية – الزمنية، هل ما تزال تعد عمارة؟ لعبيةً وباعثة على الهلوسة، هل هذه هي العمارة مابعد- الحداثية؟

لا سطح تماس بين الداخل والخارج. الواجهات الزجاجية لا تفعل سوى أن تعكس الوسط المحيط وتعيد إليه صورته. لذا فهذه الواجهات أشد مناعة من أى جدار حجري مهما كان. تماما كالأشخاص الذين يضعون نظارة سوداء. عيونهم مختفية وراءها، ولا يرى الآخر سوى انعكاسه هو. فى كل مكان ينتهى الأمر بشفافية أسطح التماس الى أن تصبح انكسارا الى الداخل. أجهزة اللوكممان، النظارات السوداء، الأجهزة المنزلية الأتوماتيكية، السيارات ذات التقنية العالية، وحتى الحوار الدائم مع الكمبيوتر، كل ما يُطلق عليه بز هو اسم الاتصال والتفاعل، ينتهى بأن يتقهقر كلٌ مونا [ذرة منفصلة] الى ظل صيغته الخاصة، الى فرجته المُدارة- ذاتيا وإلى حصانته المصطنعة. والمباني من قبيل فندق بونافينتشر تزعم أنها مدينة مصغرة كاملة، مكتفية بذاتها. لكنها تنفصل عن المدينة أكثر مما تتفاعل معها. لا تعود تراها . تنكسر على واجهاتها صورة المدينة كأنما على سطح داكن. ولا تعود قادرا على مغادرة المبنى ذاته. فضاؤه الداخلى أحبولة، لكن دون غموض، مثلما فى تلك الألعاب التي يجب فيها توصيل جميع النقاط دون أن يتقاطع خطان. هنا أيضا، يتصل كل شيء، دون أن تلتقى أبدا نظرتان.

*

نفس الشيء فى الخارج.

رجل متنكر، بمنقار طويل، وريش، وقلنسوة صفراء، مجنون متنكر يتجول على أرصفة وسط المدينة، ولا أحد، لا أحد مطلقا ينظر إليه. فلا أحد ينظر الى الآخرين هنا. إذ يملؤك الخوف من أن يلقوا بأنفسهم عليك مطالبين بمطالب غير محتملة ، من جنس، أو نقود أو تعاطف. كل شيء مشحون بعنف مسرّمن، ولا بد من تجنب التواصل للإفلات من التفريغ المحتمل لهذه الشحنة. فبعد إطلاق سراح المجانين، أصبح كل واحدٍ مجنونا مفترضا بالنسبة للآخر. كل شيء بلا رسميات، وثمة القليل جدا من التحفظ و أداب السلوك (وحدها تلك الابتسامة الأبدية الشفافة، التي لا تقدم سوى حماية هزيلة) الى حد أن تشعر أن أى شيء يمكن أن ينفجر فى أية لحظة، أن تفاعلا متسلسلا يمكن أن يفجر بضربة واحدة كل هذه الهستيريا الكامنة. ونفس الإحساس فى

نيويورك، حيث الذعر بمثابة العطر المميز لشوارع المدينة، وأحيانا ما يتخذ شكل انهيار هائل، مثلما حدث عام 1976.

في كل مكان حولنا، تشبه واجهات الزجاج الداكن وجوهاً : أسطحاً مُضَيَّبة. كأنما لا أحد في الداخل، كأنما لا أحد خلف الوجوه. ولا أحد هناك فعلاً. هكذا هي المدينة المثالية.

*

First International Bank. Crocker Bank. Bank of America. Pentecostal Savings (أم أن هذه كنيسة). كلها مكدّسة في قلب المدن، مع شركات الطيران الكبرى. المال سيّال، مثل النعمة، لكنه ليس أبداً من نصيبك. ومطالبتك به إهانة للرب. هل استحققت هذا الصنيع؟ من أنت، و ماذا ستفعل به؟ أنت مُشتَبه بأنك ستستخدمه، استخداماً شريراً بلاشك، فالمال شديد الجمال في حالته السيالة واللازمية، في البنك، حيث يُستثمر ولا يُنفق. عارٌ عليك، ولتقبّل اليد التي تمنحك إياه.

حقاً إن ملكية النقود تحرق الأصابع، مثل السلطة، ولا بد من أناس يتولون عنا هذه المخاطرة، فنكون ممتنين لهم امتناناً أبدياً. لهذا السبب أتردد في إيداع نقود بالبنك، إذ أخشى ألا أجرو على سحبها أبداً. حين تذهب للاعتراف وتترك خطاياك في رعاية الكاهن، هل تأتي أبدا لاستعادتها؟ الجو في البنوك هو جو الاعتراف (ما من موقف أكثر كافكاوية من البنوك): اعترف بأنك تملك نقوداً، اعترف بأن هذا غير مألوف. وهذا حقيقي: فامتلاك النقود موقفٌ أخرق، تخلصك منه البنوك : "أموالك تهمنا" - البنوك تبتزك، وشهوتها بلا حدود. نظرتها الوقحة تكشف عوراتك، فتضطر لتسليم نقودك لتروى غليلها. أردت يوماً إفراغ حسابي وسحب كل ما فيه نقداً. فرفض الصراف أن يتركني أخرج بكل هذا المبلغ: الأمر بذيء، وخطير، ولا أخلاقى. ألا أريد شيكات سياحية على الأقل؟ "لا، المبلغ كله نقداً". أصابني الجنون: ففي أمريكا، تكون مجنوناً جنونا مطبقاً إذا كنت، بدل أن تؤمن بالنقود وسيولتها الرائعة، تحاول أن تحملها معك نقداً. النقود قذرة، هذا صحيح. ونحن بحاجة حقاً الى كل هذه المحاريب الخرسانية والمعدنية لحمايتنا منها. البنوك تقوم إذن بوظيفة اجتماعية محورية، ومن المنطقي تماماً أن تشكل هذه المباني القلب الصرعى للمدن.

*

أحد أجمل المناظر على الإطلاق، عند الفجر : مرفأ سانتا مونيكا، الأمواج البيضاء التي تتكسر زبداء، والسماء الرمادية فوق فينيس، والفندق الأخضر الفاتح أو التركوازي المطل على الرمال، والموتيلات المتدرجة الألوان، بمصاييحها الكابية، وحوائطها المغطاة بالشعارات الجدارية، والتي تتتابع الى ما لا نهاية. الموجات الأولى يرتادها بالفعل متزلجون أرقون، أشجار النخيل التي تثير الحنين برشاقة السنوات المجنونة، والأرجوحة. المنحنى الذي يتجه صوب لونج بيتش يعادل في اتساعه خليج إيبانيم Ipanema بمدينة ريو، الذي لا يقارن إلا به. لكن على خلاف ريو، بشاطئها الفخور، الباذخ، المتباهى (والجميل مع ذلك)، هنا تنتهى المدينة تقريباً بأرضٍ فضاء تطل على المحيط، مثل ضاحية استحمام، وتحفظ بسحرها الضبابى. هنا، فى الفجر، يعدُّ

هذا أحد أُنْفَه الشواطىء فى العالم، لا يكاد يتعدى شاطىء صيادين. ينتهى العالم الغربى بشاطىء مجرد من أى دلالة، مثل رحلة يتبدد معناها حين تصل الى نهايتها. تجنب حاضرة لوس أنجلوس الضخمة على شاطىء البحر مثل صحراء، بكل لا مبالاة الصحراء.

*

LIVE OR DIE [عش أو مت]: شعار جدارى غامض فوق مرفأ سانتا مونيكا. فليس لدينا فى النهاية خيار بين الحياة والموت. إن عشت، عشت، وإن متَّ، مت. إنه أشبه بأن نقول: كن نفسك وإلا فلن تكون ! هذه حماقة، لكنها رغم ذلك ملغزة. يمكن أن نفهم أننا يجب أن نحيا بصورة مكثفة، أو نخفى، لكن هذا مبتذل. على غرار: **Pay or die !**. حافضة نقودك أو حياتك! تصبح هذه العبارة: حياتك أو حياتك ! حماقة من جديد، فالحياة لا تُستبدل بنفسها. ورغم ذلك، ثمة قوة شعرية فى تحصيل الحاصل العنيد ذاك، مثلما فى كل شىء ليس فيه ما يفهم. أخيراً، ربما كان درس هذا الشعار الجدارى هو: ستموت إن كنت أحرق منى!

*

حيث يقضى الآخرون وقتهم فى المكتبات، أقضيه أنا فى الصحارى وعلى الطرق. حيث يستمدون مادتهم من تاريخ الأفكار، أستمد أنا مادتي من الواقع الراهن، من حركة الشارع أو من أوجه الجمال الطبيعية. هذا البلد ساذج، ويجب أن أكون ساذجاً. كل شىء هنا ما زال على صورة مجتمع بدائى: فالتكنولوجيات، ووسائل الإعلام، والمشابهة الكلية (المشابهة البيولوجية، والسوسيولوجية، ومشابهة الستيريو، والفيديو) تتطور فى حالة همجية، فى حالتها الأصلية. التفاهة موجودة على نطاق واسع، وتظل الصحراء المشهد الأولى، حتى فى الحواضر الكبرى. ترامى الفضاء، بساطة اللغة والطباع . . .

ساحات صيدى هى الصحارى، والجبال، الطرق السريعة *freeways*، و لوس أنجلوس، سلسلة سوبرماركت سيفوييز *safeways*، و مدن الأشباح، أو قلب المدن، وليس محاضرات الجامعة. الصحراوات، صحراواتهم، أعرفها أفضل منهم، فهم يديرون ظهورهم لفضائهم الخاص مثلما كان الإغريق يديرون ظهورهم للبحر، وأستمد أنا من الصحراء معرفة بالحياة العينية، الاجتماعية، لأمرىكا، أكثر مما يمكن أن استمده على الإطلاق من التجمعات الرسمية أو الثقافية.

*

الثقافة الأمريكية وريثة الصحارى. لكن هذه الصحارى ليست طبيعة فى تضاد مع المدن، بل تشير الى الخواء، الى العراء الجذرى الذى يكمن فى خلفية كل مؤسسة انسانية. وفى نفس الوقت، تشير الى المؤسسات الإنسانية باعتبارها استعارةً لذلك الخواء، والى عمل الإنسان باعتباره استمراراً للصحراء، والى الثقافة باعتبارها سراباً، وتأبيداً للشبیه.

الصحارى الطبيعية تحررنى من صحارى العلامات. تعلمنى أن أقرأ فى نفس الوقت السطح والحركة، الجيولوجيا والسكون. تخلق رؤية مُنْقَاة من كل ما عداها، من المدن، والعلاقات،

والأحداث، ووسائل الإعلام. تنثير في رؤية متسامية لتصحر العلامات والبشر. تُشكل الحدّ الذهني الذي تنهار عنده مشروعات الحضارة. إنها خارج مجال ونطاق الرغبة. يجب دائماً أن نلجأ الى الصحارى ضد الإفراط في الدلالة، ضد الإفراط في القصد، وضد إدعاء الثقافة. إنها أداة التشغيل الأسطورية لدينا.

*

روميرو سادل - كامينو ثييلو - بلو كانيون

كويك سيلفر ماين - سيكامور كانيون

سان رافاييل ويلدرنيس

ROMERO SADDLE-CAMINO CIELO- BLUE CANYON

QUICK SILVER MINE-SYCAMORE CANYON

SAN RAFAEL WILDERNESS

بينما يُخيم الليل، وبعد ثلاث ساعات من القيادة، تهت في برية سان رافاييل ويلدرنيس. أوصل القيادة الى الأمام صوب آخر بارقة من أشعة النهار، ثم على هدى انعكاس ضوء المصابيح الأمامية على رمال مجرى النهر، هل أعبر أم لا أعبر؟ يسقط الظلام على كل ما حولي، ويخيم احتمال أن أقضي الليل هنا، لكن الويسكي يخلق إحساساً لذفا بالاستسلام. وأخيراً، بعد ساعتين على الطريق، والهبوط الى الجحيم، أبعث في السماء، فوق جرف كامينو ثييلو، بمنظر جوي وليلي لأضواء سائنا باربارا.

*

بورترفيل PORTERVILLE

الوصول الى هنا خلال غابات من أشجار البرتقال في خطوط مستقيمة، ذات اخضرار عميق وهندسي، على أطراف التلال البرية، مثل تلال توسكانيا، المكسوة بعشب متموج مثل فروة حيوان. ممر تحفه خمسون نخلة، ذات ارتفاع متساوٍ وسيمتريّة مطلقة، يقود الى منزل مزارع، ضئيل بالمقارنة، وكل شيش النوافذ مغلق. قد يكون هذا مشهداً كولونيالياً، لكن هذه في الحقيقة هي المنحدرات الغربية لجبال روكي، عند أقدام حديقة سيكوي الوطنية Sequoia National Park. طريق هابط الى مدينة ليست حقاً مدينة، خطوطها مستقيمة مثل أشجار البرتقال، ومأهولة بعبيد مكسيكيين اشترى سيارات سادتهم الشيفروليه القديمة، التي ترجع الى الخمسينات. يتم الهبوط عبر ممر تحفه شجيرات الدفلى. لكن المفاجأة الحقيقية هي المدينة ذاتها،

المجرّدة من المركز تماماً، إلى حدٍ لا نفهمه نحن الأوروبيون. تصعد، وتهبط كل الشوارع دون أن تستطيع تحديد ما يمكن أن يشبه نقطة مركزية. لا يوجد حتى بنوك، ولا مبان إدارية، ولا بلدية، ليس للمدينة إحداثيات، بل هي أشبه بمزرعة. وعلامة الحياة الوحيدة: العلم الأمريكي، على مقربة من مركز البلدة الميت، الفندق، المبنى الوحيد ذي الثلاثة طوابق، الذى تخفق ستائرهِ الممزقة فى ريح العصارى الساخنة، من خلال المصاريع الزجاجية المكسورة. الغرف لا تفتح حتى، فصاحب الفندق المكسيكى لا يستطيع العثور على المفاتيح. الأسعار تثير السخرية. إذ يمكنك قضاء أسبوع هنا مقابل عشرين دولاراً. ورغم ذلك، ففى كل الغرف بمراتبها المقعّرة ومراياها الملطخة بالتراب، يعمل التلفزيون على الدوام، ولا يبدو موجهها الى أى نزيل، فى الغرف المُشرعة على الريح، وكذلك فى تلك التى لم تعد تُفتح. يمكنك رؤية أجهزة التلفزيون من الشارع، من خلال الستائر، أو رؤية انعكاسها على الأقل. وفى كل الردهات، ذات الموكيت البالى تماماً، لا توجد سوى لافتة واحدة: EXIT [خروج]. يمكنك الخروج فى كل الاتجاهات. يمكنك هنا استئجار ثلاث غرف لمدة أسبوع بثمن ليلة واحدة فى موتيل عادى. لا شك أنه كان منذ أربعين عاماً، فندقاً لمجتمع بيكرزفيلد Bakersfield الراقى، حين كانوا يهربون الى جو الجبال المنعش. واليوم فإنه قلب بورترفيل، وقد أمسك بتلابيبه تدهورٌ لا رجعة فيه. لكن الجو من الحرارة بحيث لا يمكنك أن تقلق على ذلك.

يهبط الليل ببطء على بورترفيل، وتبدأ حمّى ليلة السبت. 85 American Graffiti. كل السيارات تصعد وتهبط هذين الميّلين اللذين يشكلان الشريان الرئيسى، فى موكبٍ بطيء أو نابض، فى استعراض جماعى، وهم يشربون، ويأكلون الآيس كريم، ويتصايحون من سيارة الى أخرى (بينما يقودون جميعاً بالنهار دون أن يروا بعضهم بعضاً)، موسيقى، ومكبرات صوت، وبيرة، وآيس كريم. إنه، بمقياس أصغر، نفس احتفال القيادة الليلية البطيئة على الستريب Strip فى لاس فيجاس، أو موكب السيارات على طرق لوس أنجلوس السريعة، وقد تحول ببساطة الى موكب إقليمي خلاب لمساء يوم السبت. عنصر الثقافة الوحيد، العنصر المتحرك الوحيد: السيارة. ما من مركز ثقافى، ما من مركز ترفيه. مجتمع بدائى: نفس التماهى الحركى، ونفس الوهم phantasmic الجماعى عن طقس يتوالى - الإفطار، السينما movie، القداس الدينى، الحب والموت، كلها فى السيارة -، الحياة برمتها فى السيارة drive-in. أمر رائع حقاً. كل شىء يرجع الى عرض كبسولات الغطس البراقة، الصامتة، ذاك (فكل شىء يمضى فى هدوء نسبى، فلا تغيير للسرعة ولا تجاوز لسيارةٍ أخرى، إنها نفس الوحوش المنسابة ذات ناقل السرعة الأوتوماتيكى، وهى تنزلق بسلاسة فى أعقاب بعضها). لن يحدث شىء آخر خلال الليل. باستثناء سباق العدو الذى يجرى فى ركن من البلدة، تحت الأضواء الكاشفة، فى الغبار الذى تثيره الخيول، قرب ملعب البيسبول، بين الفتيات من سن اثنى عشر الى خمسة عشر عاماً، مثل راعيات بقر حقيقيات من أفلام الغرب الأمريكى. وفى الصباح التالى، صباح الأحد، يسود الشوارع المهجورة، التى لا تكاد تتميز عن الصحراء، هدوء فائق للطبيعة. الهواء شفاف، بكل أشجار البرتقال المحيطة من كل اتجاه. بعد احتفال السيارات بالليل، يتم التخلّى عن البلدة لضوء الشوارع المفرطة الاتساع، للمتاجر الخاملة، لمحطات الخدمة شبه الناعسة. ضوءٌ طبيعى، يتيم، دون أعمدة إضاءة أو لافتات إعلانات. فقط بضعة مكسيكيين يجولون فى سياراتهم الطويلة،

بينما يغسل أوائلُ البيض سياراتهم أمام شرفاتهم المفتوحة. التفاهة الوضاعة لصباح الأحد. نموذجٌ هولوغرافي مصغّرٌ لأمريكا بأسرها.

*

ديث فالى Death Valley [وادي الموت] ضخم و ملغز على الدوام. نار، وحرارة، وضوء: هنا كل عناصر القربان. يجب دائما جلب شئٍ كقربان للصحراء، وتقديمه لها كضحية. امرأة. إذا كان لشئٍ أن يختفى هنا، شئٍ يعادل جمال الصحراء، فلماذا لا يكون امرأة؟

لا شئٍ أغرب على الصحراوات الأمريكية من التكافل العضوى symbiose (الملابس الفضفاضة، والإيقاعات البطيئة، والواحات)، كذلك الذى تجده فى الثقافات المحلية للصحراء. هنا، كل ما هو إنسانى مصطنع. فيرنيس كريك Furnace Creek هى واحة تخليقية مكيفة. لكن ليس ثمة ما هو أجمل من الطراوة الاصطناعية فى قلب الحرارة، من السرعة الاصطناعية فى قلب الاتساعات الطبيعية، من الضوء الكهربائى فى الشمس الحارقة، أو من الممارسة المصطنعة للقمار فى الكازينوهات الضائعة. راينر بانهام (12) Reyner Banham على حق: فديث فالى ولاس فيجاس لا ينفصمان، يجب قبول كل شئٍ دفعة واحدة، اللازمية التى لا تتغير واللحظية الأشد جنونا. ثمة قرابة غامضة بين عقم الاتساعات و عقم القمار، بين عقم السرعة وعقم الإنفاق. هنا تكمن أصالة صحراوات الغرب الأمريكى، فى هذا التضاد العنيف والكهربى. وينطبق نفس الشئ على البلد بأسره: إذ يجب قبول كل شئٍ دفعة واحدة، لأن هذه النظرة التلسكوبية هى التى تضى على أسلوب الحياة الأمريكى جانبه البراق، المبهج illuminating, exhilarating، مثلما يسهم كل شئٍ، فى الصحراء، فى سحر الصحراء. إذا قاربت هذا المجتمع بظلال الأحكام الأخلاقية، أو الجمالية، أو النقدية، فإنك ستمحو أصالته، التى تنشأ بالضبط من تحديه للأحكام وإحداثه تشوشا عجيباً للتأثيرات. وإذا أغفلت هذا التشوش وهذا الإفراط، تكون ببساطة قد تجنبنت التحدى الذى يواجهك به. إن عنف التضادات، وغياب التمييز بين التأثيرات الموجبة والسالبة، والنظرة التلسكوبية للأعراق، والتقنيات، والنماذج، وفالس الأشباه والصور هنا، يبلغ حد أنك، مثلما مع عناصر الحلم، يجب أن تقبل تتابعها حتى لو كان غير مفهوم، يجب أن تجعل من هذه الحركة حقيقة أساسية لا تُقاوم.

التميزات التى يحددها المرء فى أماكن أخرى لا تعنى الكثير هنا. فمن غير المجدى أن نركّز على ملامح تهذيب أمريكى يفوق تهذيبنا فى الحقيقة (نحن بلد "الثقافة الراقية") ثم نبرز أن الأمريكيين همجٌ فى مجالات أخرى. من غير المجدى أن نضع ديث فالى بوصفه ظاهرة طبيعية متسامية، فى مقابل لاس فيجاس بوصفها ظاهرة ثقافية مُنفرة. لأن كلا منهما هو الوجه الخفى للآخر، ويتجاوبان على جانبي الصحراء، أحدهما بوصفه ذروة الدعارة والاستعراض، والآخر بوصفه ذروة السر والصمت.

يُضاف الى هذا أن ثمة فى ديث فالى شئٍ غامض فى ذاته. ومهما كان جمال صحارى يوتاه وكاليفورنيا مجتمعة، فإنه شئٍ مختلف ، ومتسام. غيمة الحرارة الخارقة للطبيعة التى تله، وعمقه المقلوب، تحت مستوى سطح البحر، هذا المشهد بواقع قاع البحر، بأسطحه الملحية وتلاله الطينية mudhills، والجبال الشاهقة التى تطوّقه، لتجعل منه نوعا من المحراب الداخلى-

مكان تكريسي، عذب وشبجي، نتيجة عمقه الجيولوجي وجو الأعراف (13) limbes فيه. أما ما أذهلني دوماً، فهو **عذوبة** وادي الموت، ظلال ألوان الباستيل، وغلالة الحفريات، وعرض الاشباح الغائم لأوبرا الجمادات. ما من شيء جنازى أو سقيم : نفاذ للقلب transverbération كل ما فيه محسوس، العذوبة المعدنية للهواء، الجوهر المعدني للضوء، الفيض الجسيمي للألوان، التخرج l'extraversion التام للجسد في الحرارة. إنه شذرة من كوكب آخر (سابق على الأقل لأي شكل للحياة البشرية)، تسوده زمنية أخرى، أعمق، نطفو على سطحها مثلما فوق ماء ثقيل مشبع بالملح. وما يحدّر الحواس، والعقل، وكلّ حس بالانتماء الى الجنس البشرى، هو أن تكون في مواجهتك العلامة الخالصة، التي لم تتبدل، لمائة وثمانين مليون عام، ومن ثم اللغز الذي لا يرحم لوجودك ذاته. إنه المكان الوحيد الذي يمكن فيه أن تحيا من جديد، مع طيف الألوان المادى، طيف التحولات اللاإنسانية التي سبقتنا ، صيروراتنا المتتابعة: الجماد، والعضوى، وصحراء الملح، وكثبان الرمل، والصخر، وخام المعدن، والضوء، والحرارة، كل ما كانته الأرض، كل ما مرت به من أشكال إنسانية، مجتمعاً في نظرة تجميعية واحدة.

الصحراء امتداد طبيعي للصمت الداخلى للجسد. وإذا كانت لغة، وتقنيات، ومبانى الانسان امتداداً لقدراته الإنشائية، فالصحراء وحدها امتداداً لقدرته على الغياب، هي المخطط المثالى لتلاشيهِ. حين يخرج المرء من صحراء موهافى Mojave ، كما يقول بانهام، من الصعب أن يتوافق مع أقل من خمسة عشر ميلاً. لا تعود العين تستقر على الأشياء القريبة. لا تعود تستقر حقاً على الأشياء، وكل التكوينات البشرية أو الطبيعية التي تعترض نظرته تبدو له عقبات مملة لا تفعل سوى إفساد الامتداد التام للبصر. حين تخرج العين من الصحراء، تواصل محاولة خلق الفراغ عقلياً في كل مكان، لا يمكنها سوى تخيل الصحراء في كل المناطق المأهولة، وكل المناظر الطبيعية، كعلامة مائية. ويستغرق الإقلاع عن هذه العادة وقتاً طويلاً، ولا يكون نهائياً أبداً. أبعدوا عن بصرى كل مادة. . . لكن الصحراء ليست فضاء أفرغت منه كل مادة. كما أن الصمت ليس ما يتبقى حين يتم انتزاع كل جلبة. ما من حاجة لإغلاق عينيك حتى تسمعه. فهو أيضاً صمت الزمن.

*

حتى الاختصار السينمائي لا يغيب عن ديث فالى. فكل هذه الجيولوجيا الغامضة هي أيضا سيناريو. الصحراء الأمريكية هي قطعة دراما استثنائية، ليست مسرحية على الإطلاق، مثل مناظر جبال الألب، ولا عاطفية، مثل الغابة أو الريف. ولا متأكلة ورتيبة مثل الصحراء الأسترالية، تحت-القمرية. ولا صوفية مثل صحارى الإسلام. إنها درامية بصورة خالصة، جيولوجية، تجمع بين الاشكال الأكثر حدّة والأكثر لدونة وأشكال قاع البحر الأكثر رقة والأشدّ شبقيةً – كل تحولات القشرة الأرضية موجودة هنا في مركّب، في موجز عجيب. كل ذكاء الارض وعناصرها مُجمّع هنا، في مشهد بلا نظير: ملحمة جيولوجية. السينما ليست هي وحدها التي أعطتنا رؤية سينمائية للصحراء، فالطبيعة ذاتها قد حققت هنا، قبل البشر بكثير، أجمل مؤثراتها الخاصة.

لا جدوى من السعى الى نزع الطابع السينمائي عن الصحراء للإبقاء على خاصيتها الأصلية، فالتراكب شامل، ويواصل البقاء. وقد امتصت السينما كل شيء: الهنود، والهضاب *mesas*، والشعاب، والسموات. ورغم ذلك فهذا أكثر مشاهد العالم إذهالاً. هل يجب أن نفضل الصحراوات "الأصيلة" والواحات العميقة؟ بالنسبة لنا نحن الحداثيون وفوق-الحداثيين، مثلما بالنسبة لبودليير الذى أدرك أن سر الحداثة الحقة يكمن فى الاصطناع، فإن المشهد الطبيعى الوحيد المذهل حقاً هو الذى يقدم فى آنٍ واحدٍ العمقَ الأبلغ تأثيراً **والشبيه الكلى لهذا العمق**. مثلما هى الحال هنا، حيث يتبدى عمق الزمن من خلال عمق المجال (السينمائي). مونيومنت فالى، هو جيولوجيا الأرض، وضريح الهنود، وكاميرا جون فورد John Ford. إنه التآكل، والإبادة، لكنه أيضاً اللقطة الواسعة والصورة الناطقة. والثلاثة ممتزجون فى رؤيتنا عنه. وكل مرحلة تضع نهاية لسابقتها بشكل مرهف. فإبادة الهنود تضع نهاية للإيقاع الكونى الطبيعى لهذه المناظر الذى ارتبط به وجودها السحرى منذ آلاف السنين. ومع حلول حضارة الرواد، أفسحت صيرورةً بالغة البطء مكانها لأخرى أسرع بكثير. إلا أن هذه الصيرورة الأخيرة استُبدلت بعد خمسين عاماً باللقطة السينمائية الواسعة، التى تسارع الصيرورة بدرجة أكبر وتضع على نحوٍ ما نهاية لاختفاء الهنود، ببعثهم ككومبارس. وهكذا فإن هذا المنظر الطبيعى شاهدٌ على كل الأحداث الجيولوجية و الأنثروبولوجية، حتى أقربها. من هنا الخصائص المشهدية الاستثنائية لصحارى الغرب، حيث تجمع بين الرموز الهيروغليفية الأشد إغغالا فى القدم، والضوء الأشد لمعناً، والسطحية الأشد شمولاً.

*

اللون هنا يبدو رهيفاً ومنفصلاً عن المادة، منكسراً فى الهواء وطافياً على سطح الأشياء - ومن هنا الانطباع الطيفى، **الشبحى ghostly**، والمستتر، شبه الشفاف، والهادىء، والمتدرج الظلال للمناظر. ومن هنا تأثير السراب، سراب الزمن أيضاً، الذى يقارب الوهم الكلى. الصخور، والرمال، والبللورات، وأشجار الصبار أبدية، لكنها أيضاً سريعة الزوال، ولا واقعية، ومنفصلة عن مادتها. النباتات فى حدها الأدنى، لكنها غير قابلة للتدمير، وفى كل ربيع جديد، تنفجر معجزة الأزهار. وبالمقابل، فإن الضوء ذاته مادي، مسحوقٌ الى ذرات فى الهواء، ويمنح كل ظلال الألوان تلك المسحة الباستيل المميّزة، التى تبدو كأنها صورة اللاتجسّد، صورة انفصال الروح عن الجسد. بهذا المعنى، يمكن الحديث عن تجريد الصحراء، عن تحررٍ مما هو عضوى، يتجاوز العبور المقرّف للجسد باتجاه الفناء الجسمانى. عن مرحلة جافة، مرحلة وضاعة للموت، يكتمل فيها تحلل الجسد. الصحراء تتجاوز هذه المرحلة اللعينة للتعفن، هذه المرحلة الرطبة للجسد، هذه المرحلة العضوية للطبيعة.

*

الصحراء شكلٌ متسامٍ ينأى عن كل إجتماعية، عن كل عاطفية، عن كل جنسانية. و الكلام، حتى المتواطىء، زائد دوماً عن الحاجة. والملاطفة ليس لها معنى، إلا إذا كانت المرأة ذاتها صحراوية، ذات حيوانية فورية و سطحية، يقتزن فيها الجسمانى بالجفاف و اللاتجسّد. لكن، بمعنى آخر، لا شيء يعدل سقوط الليل، تحت عباءة الصمت، فوق وادى الموت، فوق الشرفة

المواجهة للكثبان، من مقاعد الموتيل، المتهالكة، الشفافة. لا تهبط الحرارة ، بل يهبط الليل وحده، تتخلله بعض مصابيح السيارات. الصمت خارق، أو بالأحرى كله أذان. ليس صمت البرد، ولا الجذب، ولا غياب الحياة، إنه صمت كل هذه الحرارة فوق اتساع الجمادات التي تمتد أمامنا لمئات الأميال، صمت الريح الرخيّة فوق الأوحال الملحية لبادووتر Badwater، التي تربّت على منابع خام المعدن في تليجراف بيك* Telegraph Peak. صمت داخلي للوادي ذاته، صمت تآكل قاع البحر، أسفل خط طفو الزمن، مثلما هو أسفل مستوى البحر. ما من حركة حيوانية. لا شيء يحلم هنا، لا شيء يحلم أثناء النوم. كل مساء تسقط الأرض في ظلمات هادئة تماما، في سواد حملها القلوى، في المنخفض السعيد لولادتها.

*

قبل أن أرحل بكثير، لم أعد أحيا سوى في تذكّار سانتا باربارا. ليست سانتا باربارا سوى حلم بكل عمليات الحلم : التحقق المملول لكل الرغبات، التكتيف، الإزاحة، السهولة. . . سرعان ما يصبح هذا كله غير واقعي. يالأيام السعيدة ! هذا الصباح، جاء طائر ليموت فوق شرفتي، فسوّرتة. لكن ليس ثمة من لا يعبأ بحياته هو، وما زال لأتفه حدثٍ قوةً مؤثرة. لقد كنت هنا بخيالي قبل أن أتى بكثير، فجأة أصبحت هذه الإقامة إقامة في حياة سابقة. وخلال الأسابيع الماضية، بدا أن الزمن قد تضاعف بفعل الشعور بأنني لم أعد هناك وبأنني أحيا سانتا باربارا كل يوم، برقتها القاتلة وغطائتها، كأنها المكان المقدور لعودٍ أبدي.

*

تختفي الأشياء بسرعة متزايدة في المرأة الخلفية للذاكرة. ينمحي شهران ونصف في ثوان معدودة من إعادة التوافق الذهني [مع أوروبا]، أسرع حتى من الفجوة الزمنية التي يحدثها ركوب النفاثات jet lag. من الصعب الإبقاء على الإعجاب، أو وميض الدهشة، من الصعب الاحتفاظ للأشياء بطزاجتها. الأشياء لا تبقى أبدا أطول من الوقت الذي يستغرقه حدوثها. كانت عادة لطيفة أن نشاهد الأفلام أكثر من مرة، لكننا نفقدنا. أشك في أننا سنعاود مشاهدة حياتنا برمتها في لحظة عند موتنا. ونفس احتمال العود الأبدى أصبح محفوفًا بالمخاطر: فهذا المنظور الرائع يفترض أن الأشياء تخضع لتتابع ضروري وحتمي، يتجاوزها معناه. ولا شيء من هذا اليوم، فالأشياء تجري في تتابع رخو و بلا مستقبل. العود الأبدى اليوم يتعلق بالمتناهي الصغير، بالجزئي fractal، بالتكرار الحواذي للأشياء على مستوى مجهري ولا إنساني. ليس تمجيذا لإرادة، ولا توكيدا سياديا لحدث، ولا تكريسه بعلامة لا تمحي مثلما أراد نيتشه، لكنه التكرار الفيروسي لصيورات مجهريّة، لا مفر منها بالتأكيد، لكن ما من علامة قوية تجعلها مقدورة أمام الخيال (فلا الانفجار النووي، ولا التسرب الفيروسي يمكن للخيال أن يسميها) هكذا هي الأحداث التي تحيطنا: ذات صيرورة مجهريّة و تنمحي على الفور.

العودة من كاليفورنيا، تعني الدخول من جديد الى عالم رأيته من قبل، وعشته من قبل، لكن دون سحر العودة الى حياة أسبق. لقد تركته على أمل أنه سيتغير تماما في غيابك، لكن شيئا لم يحدث. لقد استمر هذا العالم بسلاسة تامة بدونك، ويتوافق بسلاسة تامة مع عودتك. ينتظم الناس والأشياء بحيث يبدو وكأنك لم ترحل. ومن جانبي، فإنني تركت هذا كله دون أسف وأعود إليه

دون انفعال. والناس مشغولون بحكاياتهم الصغيرة أكثر ألف مرة من انشغالهم بغرابة عالم آخر. وأفضل نصيحة لك أن تهبط هنا بترو، وتحطّ الرّحال بأدب، كاتماً انفاسك، ومحتفظاً لنفسك بالروى القليلة التى ما زالت تلتمع فى ذاكرتك.

*

تكشف المواجهة بين أمريكا وأوروبا عن تشوه، أكثر من كونه تقارباً rapprochement، عن قطيعة لا يمكن تجاوزها. وليس الأمر مجرد فجوة، بل تفصلنا هوة الحادثة. لا يصبح المرء حدثياً، بل يولد حدثياً. ونحن لم نصبح كذلك أبداً. ما يصدم العين فى باريس، هو القرن التاسع عشر. عند قدمك من لوس أنجلوس، تهبط فى فى القرن التاسع عشر. يحمل كل بلد نوعاً من القدر التاريخى، يرسم قسماته بصورة شبه حاسمة. وبالنسبة لنا، فإن ما يشكل مشهدنا هو النموذج البورجوازى لعام 1798، والانحطاط الذى لا ينتهى لهذا النموذج. وليس لدينا ما نفعله: فكل شىء هنا يدور حول الحلم البورجوازى للقرن التاسع عشر.

** **

اليوتوبيا المتحققة

بالنسبة للأوروبي، ما زالت أمريكا تناظر، حتى اليوم، شكلا كامنا للمنفى، استيهاما للهجرة وللنفي، ومن ثم نوعا من التمثّل الداخلي لثقافته الخاصة. وهي تناظر، في نفس الوقت، تخارجا extraversion عنيفاً، ومن ثم، درجة الصفر لهذه الثقافة ذاتها. ما من بلد آخر يجسد الى هذا الحد وظيفة نزع التجسد هذه، وفي ذات الوقت مفاقمة، وتجذير، معطيات ثقافتنا الأوروبية. بفضل ضربة عنيفة، أو ضربة مسرحية، ضربة المنفى الجغرافي للآباء المؤسسين في القرن الثامن عشر، المقترن مع المنفى الاختياري للإنسان داخل ضميره الخاص، فإن ما ظل في أوروبا باطنيةً ésotérisme نقديةً ودينية، تحوّل في القارة الجديدة الى علنية exotérisme برجماتية. وكل تأسيس أمريكا يستجيب لهذه الحركة المزدوجة لتعميق القانون الأخلاقي في الضمائر، لتجذير المطلب الطوباوي الذي كان دوما مطلب الطوائف الدينية، وللتجسيد المادي الفوري لهذه اليوتوبيا في العمل، والعادات، ونمط الحياة. أن تحطّ الرحال في أمريكا يعنى، حتى في يومنا هذا، أن تحطّ الرحال في "عقيدة" نمط الحياة هذه التي تحدث عنها توكفيل Tocqueville. وقد بلور المنفى و الهجرة هذه اليوتوبيا المادية لنمط الحياة، للنجاح والفعل بوصفهما توضيحا عميقا للقانون الأخلاقي، وحوّلاها على نحو ما الى مشهد بدائي. أما نحن، في أوروبا، فإن ما وسمنا كان ثورة 1789، لكن بخاتم مختلف: خاتم التاريخ، والدولة، والإيديولوجيا. ويظل التاريخ والسياسة، وليس المجال الطوباوي والأخلاقي، يمثلان مشهدنا البدائي. وإذا كانت هذه الثورة "المتسامية" على الطريقة الأوروبية لم تعد اليوم على يقين من أهدافها و وسائلها، فلن يستطيع المرء قول نفس الشيء عن تلك الثورة، المحايثة، لنمط الحياة الأمريكي، عن هذا التوكيد الأخلاقي، و البراجماتي الذي يشكل، اليوم مثل الأمس، الروح العام للعالم الجديد.

*

أمريكا هي النسخة الأصلية للحدث، ونحن النسخة المُدبّلة أو المترجمة. أمريكا تنبذ سؤال الأصل، لا تتخذ لها أصلاً ولا أصالة أسطورية، وليس لها ماضٍ ولا حقيقة مؤسّسة. ولأنها لم تشهد تراكما بدائيا للزمن، فإنها تحيا في حاضر أبدي. ولأنها لم تشهد تراكما بطيئا، يستغرق قرونا، لمبدأ الحقيقة، فإنها تحيا في المشابهة الأبدية، في الواقع الأبدى للعلامات. ليس لديها

موطن أسلاف، و موطن الهنود مطوّق اليوم فى معازلٍ هى المعادلُ للمتاحف التى تُراكم فيها لوحات رمبرانت Rembrandt و رينوار Renoir. لكن لا أهمية لذلك – فأمريكا ليس لديها مشكلة هوية. القوة فى المستقبل ستكون مكرّسةً لشعوبٍ بلا أصل ، وبلا أصالة، تعرف كيف تستغل هذا الوضع الى أقصى درجة. أنظروا الى اليابان، التى كسبت الرهان الى حدٍ معين أفضل من الولايات المتحدة ذاتها، و نجحت ، فيما يبدو لنا تناقضاً غير مفهوم، فى تحويل قوة التوطين territorialité والإقطاعية الى قوة نزع التوطين déterritorialité وانعدام الجاذبية. أصبحت اليابان بالفعل قمرا تابعا satellite يدور حول كوكب الأرض. لكن أمريكا كانت فى زمانها بالفعل قمرا تابعا لكوكب أوروبا. وسواء شاء المرء أم أبى، فقد تحول المستقبل باتجاه الأقمار التابعة الاصطناعية .

*

الولايات المتحدة هى اليوتوبيا المتحققة.

لا يجب أن نحكم على أزمتهم مثلما نحكم على أزمتنا، أزمة البلدان الأوروبية العجوز. فأزمنا هى أزمة مثل عليا تاريخية فى مواجهة تحقيقها المستحيل. أما أزمتهم فأزمة اليوتوبيا المتحققة فى مواجهة دوامها واستمرارها. القناعة المثالية لدى الأمريكيين بكونهم مركز العالم، القوة الأعظم والنموذج المطلق، ليست زائفة. ولا تقوم هذه القناعة على أساس الموارد، والتكنولوجيات، والأسلحة، بقدر ما تقوم على أساس الافتراض المسبق العجيب بيوتوبيا متجسدة، بمجتمع تأسس، باستقامة يمكن اعتبارها لا تطاق، على فكرة أنه تحقّق لكل ما حلم به الآخرون – العدالة، الوفرة، حكم القانون، الثروة، الحرية: هذا المجتمع يعرف ذلك، ويؤمن به، وأخيرا أصبح الآخرون أيضا يؤمنون به.

ينتهى الأمر بالجميع، فى الأزمة الراهنة للقيم، الى الاستدارة صوب الثقافة التى تجاسرت، بضربة معلم مسرحية، على تجسيد هذه القيم دون إبطاء، صوب تلك التى أمكنها ، بفضل القطيعة الجغرافية والعقلية التى أحدثتها الهجرة، الاعتقاد بأنها ستخلق عالما مثاليا من لا شىء – ولا يجب تجاهل التكريس الاستيهامى لكل ذلك فى السينما. مهما حدث، ومهما اعتقد المرء بغرور الدولار أو الشركات المتعددة الجنسيات، فإن هذه الثقافة هى التى تبهر عالميا حتى أولئك الذين يعانون منها، وذلك من خلال هذا الاقتناع الحميم والمجنون بأنها قد جسدت كل أحلامهم.

وليس هذا الاقتناع مفرط الجنون: فكل المجتمعات الرائدة كانت مجتمعات مثالية بدرجةٍ أو بأخرى. حتى اليسوعيين فى الباراجواى. وحتى البرتغاليين فى البرازيل الذين أقاموا نوعاً من المجتمع المثالى الأبوى والعبودى. لكن بخلاف النموذج الشمالى، الأنجلو- سكسونى و البيوريتانى، لم يستطع النموذج الجنوبى أن يكون نموذجا عاما فى العالم الحديث. بتصدير نفسه، وبالتحول الى أفنوم فيما وراء البحر، تطهّر المثل الأعلى من تاريخه، وتجسّد عينيّا، وتطور بدم جديد وطاقة تجريبية. ومازالت دينامية "العوالم الجديدة" تشهد على تفوقها على وطنها الأصلى: إذ تضع موضع التشغيل ذلك المثل الأعلى الذى تعهّده الآخرون باعتباره غاية نهائية و مستحيلة سراً.

بهذا المعنى كان الاستعمار ضربة مسرحية باتساع العالم، يترك في كل مكان أثرا عميقة و حنينية، حتى وهو ينهار. إنه يمثل بالنسبة للعالم القديم خبرة فريدة لتبدل مثالي للقيم، تماما مثلما في رواية خيال-علمي (تحتفظ عادة بنغمته، كما في الولايات المتحدة)، تبدل أعاق بضربة واحدة مصير هذه القيم في بلدانها الأصلية. فنشوء هذه المجتمعات على الهامش يلغى مصير المجتمعات التاريخية. والاستكمال العنيف لجوهر هذه المجتمعات التاريخية عبر البحار يجعلها تفقد السيطرة على تطورها. يلغىها النموذج المثالي الذي أفرزته. ولن يأخذ التطور من جديد أبداً شكل اصطفاة تقدمي. واللحظة التي تتحقق فيها تلك القيم التي كانت حتى الآن متسامية، لحظة اسقاطها على الواقع، أو انهيارها عند مواجهته (أمريكا)، هي لحظة لا عودة فيها. و هذا ما يفصلنا، مهما حدث، عن الأمريكيين. لن نلحق بهم أبداً، ولن ننال استقامتهم أبداً. فنحن لا نفعل سوى تقليدهم، محاكاتهم محاكاة ساخرة متأخرين عنهم خمسين سنة، دون حتى أن ننجح في هذا. تنقصنا روح و جسارة ما يمكن تسميته درجة صفر الثقافة، قوة اللا- ثقافة. لن يفيدنا أن نحاول التوافق الى هذا الحد أو ذاك، فسوف تظل رؤيتهم للعالم أبعد من إدراكنا على الدوام، مثلما ستظل أبعد من إدراك الأمريكيين على الدوام رؤية العالم *Weltanschauung* الأوروبية المتسامية والتاريخية. بالضبط مثلما لن تستوعب بلدان العالم الثالث أبدا قيم الديمقراطية والتقدم التكنولوجي – فثمة فجوات حاسمة لا يمكن تخطيها.

سنظل طوباويين حنينيين تمزقنا مثلنا العليا، لكننا ننفر في أعماقنا من تحقيقها، نُقر بأن كل شيء ممكن، لكن ليس أبداً بأن كل شيء متحقق. وهذا ما تؤكد أمريكا. مشكلتنا أن غاياتنا العتيقة – الثورة، والتقدم، والحرية – ستكون قد تبخرت قبل أن تتحقق، دون أن تتجسد. ومن هنا السوداوية. لن نتاح لنا أبدا الفرصة لهذه الضربة المسرحية.

نحن نحيا في السلبية و التناقض، وهم يحيون في التعارض *paradoxe* (لأن فكرة اليوتوبيا المتحققة هي فكرة تنطوي على تعارض). وتكمن نوعية نمط الحياة الأمريكي بالنسبة للكثيرين في هذا المزاج البراجماتي و المنطوي على تعارض، بينما يتميز (تميز؟) نمط حياتنا نحن برهافة الروح النقدية. العديد من المثقفين الأمريكيين يحسدوننا، ويودون أن يصوغوا لأنفسهم قيما مثالية، وتاريخا، وأن يحيوا من جديد المباحج الفلسفية أو الماركسية لأوروبا العجوز. إلا أن هذا يعاكس كل ما يشكل وضعهم الأصلي، إذ أن سحر وقوة الـ(لا) ثقافة الأمريكية ينتج بالضبط من التجسد المادي المفاجيء وغير المسبوق للنماذج.

*

حين أرى الأمريكيين، خصوصا المثقفين ينظرون بحنين صوب أوروبا، تاريخها، وميتافيزيقاها، ومطبخها، وماضيها، أقول لنفسى أن الأمر هنا يتعلق بإزاحة تعسة. التاريخ والماركسية مثل الخمر المعتقة والمطبخ: لا يعبران المحيط حقا، رغم المحاولات المؤثرة، لاستئناسهما. ويعد هذا انتقاما عادلا من كوننا، نحن الأوروبيين، لم نستطع حقا تدجين الحداثة، التي ترفض بدورها عبور المحيط، لكن في الاتجاه العكسي. هناك منتجات لا تخضع للاستيراد أو التصدير. وهذا أسوأ بالنسبة لنا، وأسوأ بالنسبة لهم. إذا كان المجتمع بالنسبة لنا زهرة آكلة للحوم، فإن التاريخ بالنسبة لهم زهرة غريبة. لم يعد رحيقها مقنعا أكثر من باقة أنبذة كاليفورنيا (ولا جدوى من محاولة اقتناعنا اليوم بعكس ذلك).

ليس الأمر فقط أن التاريخ لا يمكن اللحاق به، بل يبدو أيضا أن نفس الواقع الراهن لرأس المال، في هذا المجتمع "الرأسمالي"، لا يمكن اللحاق به أبدا. ليس ذنب نقادنا الماركسيين أنهم لم يحاولوا مطاردة رأس المال، لكنه ظل دائما متقدما عنهم بمسافة. حين يتم كشف اللثام عن مرحلة، يكون قد عبر إلى مرحلة تالية (إرنست ماندل ومرحلته الثالثة لرأس المال العالمي). رأس المال مُخاتل، لا يلعب وفق قواعد النقد، لعبة التاريخ الحقيقية، بل يُبطل الديالكتيك، الذي لا يعيد بناءه إلا بعد اكتمال الحدث، بثورة متأخرة. ونفس الثورات المناهضة للرأسمالية لا تفيد إلا في إحياء ثورته الخاصة: فهذه الثورات تعادل الأحداث الخارجية *exogenous events* التي تحدث عنها ماندل، مثل الحروب أو الأزمات، أو اكتشاف مناجم الذهب، والتي تعيد إطلاق العملية الرأسمالية على أسس جديدة. وأخيرا، فإن كل هؤلاء المنظرين يوضحون هم أنفسهم تفاهة آمالهم. إذ بإعادة اختراعهم لرأس المال في كل مرحلة، على أساس أسبقية الاقتصاد السياسي، فإنهم يقدمون الدليل على المبادرة المطلقة التي يتمتع بها رأس المال بوصفه حدثا تاريخيا. إنهم بهذه الطريقة ينصبون فخا لأنفسهم، ويحرمون أنفسهم من كل فرصة لتجاوزه. مما يثبت في نفس الوقت – وربما كان هذا هدفهم – استمرار صلاحية تحليلهم الاستعادي.

*

لم تعدم أمريكا العنف أبدا، ولا الأحداث، ولا الرجال، ولا الأفكار، لكن هذا كله لا يصنع تاريخا. وأوكتابيو باث Octavio Paz على حق في تأكيد أن أمريكا قد أقيمت بقصد الإفلات من التاريخ، تشييد يوتوبيا محمّية من التاريخ، وأنها قد نجحت في ذلك جزئيا، وما زالت اليوم تسعى إلى تحقيقه. التاريخ بوصفه تساميا لعقل اجتماعي وسياسي، رؤية جدلية ونزاعية للمجتمعات، هذا المفهوم ليس مفهومهم – مثلما أن الحادثة، بوصفها قطيعة أصيلة مع تاريخ معين، لن تكون أبدا من نصيبنا. لقد عشنا زمنا طويلا بوعي تعس بهذه الحادثة بما يكفي لأن نترك ذلك. لقد اخترعت أوروبا نوعا معينا من الإقطاع، والأرستوقراطية، والبورجوازية، والإيديولوجيا، والثورة. وكان لكل ذلك معنى بالنسبة لنا، لكنه في العمق لم يكن له من معنى في أى مكان آخر. وكل من حاولوا محاكاة ذلك جرى الهزء بهم أو تضليلهم على نحو درامي (ونحن أنفسنا لم نعد نفعل سوى محاكاة أنفسنا والبقاء على قيد الحياة). أما أمريكا فوجدت نفسها في وضع قطيعة وحادثة جذرية: الحادثة، إذن، أصيلة هناك فقط، وليس في أى مكان آخر. وليس باستطاعتنا سوى محاكاتها، دون أن نستطيع تحديدها في ملعبها. حين يكون حدثٌ قد وقع، فقد وقع، وانتهى الأمر. وحين أرى أوروبا تصوب بصرها إلى الحادثة بأى ثمن، أقول لنفسي أن الأمر هنا يتعلق أيضا بإزاحة تعسة.

إننا دوما في المركز، لكنه مركز العالم القديم. وهم الذين كانوا تساميا هامشيا لهذا العالم القديم أصبحوا اليوم المركز الجديد والمنحرف عن المركز *excentrique*. الانحراف عن المركز هو شهادة ميلادهم. لن يمكننا أبدا انتزاعه منهم. لن نستطيع أبدا أن ننحرف عن المركز، أن ننزع مركزنا على نفس النحو، وبالتالي فلن نكون أبدا مُحدثين بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولن تكون لنا أبدا نفس الحرية – ليس تلك الحرية الشكلية التي نأخذها كأمر بديهي، بل تلك العينية، المرنة، الوظيفية، النشطة، التي نراها تعمل داخل المؤسسات الأمريكية، وداخل رأس كل

مواطن. لن يتمكن مفهومنا للحرية أبدا من منافسة مفهومهم، الفضائي و المتحرك، الناتج عن حقيقة أنهم قد تخلصوا ذات يوم من هذه المركزية التاريخية.

بدأت أوروبا في التلاشى منذ اليوم الذي ولدت فيه عبر الأطلنطي هذه الحادثة المنحرفة عن المركز بكل قوتها. وانتقلت الأساطير أيضا. فكل أساطير الحادثة اليوم أمريكية. ولن يفيدنا أن نعذب أنفسنا بذلك. في لوس أنجلوس، اختفت أوروبا. و كما تقول إيزابيل هوبير(1) Isabelle Huppert: "لديهم كل شيء. وليسوا بحاجة الى شيء. وهم يحسدوننا بالتأكيد، ويعجبون بماضينا وثقافتنا، لكننا في العمق نبذو لهم نوعا من العالم الثالث الأنيق".

*

من نزع المركزية الأولى، ستنبقى دائما، في المجال السياسي، فيدرالية، غياب للمركزية، وعلى مستوى العادات والثقافة، نزع للمركزية، انحراف عن المركز هو ذات انحراف العالم الجديد عن المركز بالنسبة لأوروبا. ليست للولايات المتحدة مشكلة لا تقبل الحل بصدد الفيدرالية (بالطبع وقعت حرب الانفصال، لكننا نتكلم عن المجموع الفيدرالي الراهن)، لأنهم منذ البداية، منذ فجر تاريخهم، ثقافة اختلاط مشوش، ثقافة خليط، مزيج قومي وعرقى، ثقافة تتناحر وتتأفر. وهذا واضح في نيويورك، حيث سيطر كل مبنى بالتتابع على المدينة، وحيث سيطرت كل عرقية بدورها على المدينة بطريقتها، لكن المجموع يعطى انطبعا ليس بخليط متنافر، بل بتلاقى الطاقات، ليس بالوحدة أو التعددية، بل بالكثافة التنافسية، بالقوة التناحرية، خالقا بذلك تواطوا، انجذابا جماعيا، يتجاوز الثقافة أو السياسة، في قلب عنف أو ابتذال نمط الحياة.

وفي نفس هذا الخط من التفكير، ثمة اختلاف عميق بين أمريكا وفرنسا في النغمة العنصرية، والعرقية. فهناك، خلق الاختلاط العنيف لقوميات أوروبية عديدة، ثم لأجناس خارجية، وضعا أصيلا. فقد غيرت هذه التعددية العرقية البلاد ومنحتها تعقيدها المميز. أما في فرنسا، فلم يكن ثمة مزيج أصلى، ولا ذوبان حقيقى، ولا تحدٍ من جماعة لأخرى. بل تم ببساطة نقل الوضع الكولونيالى الى المتروبول، خارج سياقه الأصلى. وكل المهاجرين حركيين (2) harkis في أعماقهم، يخضعون للحماية الاجتماعية لمضطهديهم، وليس لديهم ما يعارضونهم به سوى بؤسهم وتغريبهم الفعلى. الهجرة مسألة ملتهبة بلا شك، لكن وجود عدة ملايين من المهاجرين لم يستطع في ذاته أن يترك أثره على نمط الحياة الفرنسى ولم يغير قسما من هذا البلد. ولهذا السبب، فانك حين تعود الى فرنسا، يتكون لديك انطباع سائد دبق بوجود عنصرية التفاصيل الصغيرة، التى تضع الجميع فى وضع زائف ومشين. هذه عاقبة وضع استعمارى، يتواصل فيه سوء طوية المستعمر والمستعمر. بينما فى أمريكا، تطوّر كل عرقية، وكل جنس، لغة، ثقافة تنافسية، تتفوق أحيانا على ثقافة "السكان الأصليين"، وتصعد كل جماعة بدورها الى القمة بشكل رمزى. وليس الأمر مسألة مساواة أو حرية شكلية، بل حرية أمر واقع، تجد التعبير عنها فى التناحر والتحدى، مما يضيف حيوية فريدة، وطابعا مفتوحا على المواجهة بين الأعراق.

ثقافتنا الأوروبية هى ثقافة راهنت على الكلى universal، والخطر الذى يتهددها هو الفناء على يد الكلى. . . ولا يتضمن هذا فحسب انتشار مفهوم السوق، والتبادلات النقدية، أو سلع الإنتاج،

بل كذلك امبريالية فكرة الثقافة. فلنحاذر من هذه الفكرة، التي لم تصبح كلية إلا بصياغتها تجريديا، تماما مثل فكرة الثورة، و بهذه الصفة تلتهم الفردية مثلما تفعل الثورة بأبنائها.

ونتيجة مطلب الكلية هذا أنه يجعل كلا من التنوع الى أسفل والاتحاد الى أعلى مستحيلين بنفس الدرجة. ففور أن تكون أمة أو ثقافة قد تركزت وفق صيرورة تاريخية صلبة، فإنها تواجه صعوبات لا يمكن تجاوزها إذا حاولت خلق كيانات - فرعية قابلة للبقاء أو الاندماج ضمن كيانات-أكبر متماسكة. ثمة نوع من الحتمية فى عملية المراكز. ومن هنا الصعوبات الراهنة فى العثور على روح، وثقافة، ودينامية أوروبية. العجز عن إنتاج حدث فيدرالى (أوروبا)، أو حدث محلى (نزع المركزية)، أو حدث عرقى أو متعدد الأعراق (الاختلاط). من فرط تقيّدنا بتاريخنا، لا يمكننا سوى انتاج مركزية مخجلة (تعددية على طريقة كلوشميرل (3) Clochemerle) واختلاط مشوش مشين (عنصريتنا اللينة).

*

يفسّر مبدأ اليوتوبيا المتحققة غياب، وحتى لاجدوى، الميتافيزيقا والمُتخيل فى الحياة الأمريكية. فهى تخلق لدى الأمريكيين إدراكا للواقع مختلفا عن إدراكنا. الواقعى هناك ليس مرتبطا بالمستحيل، ولا يمكن لأى إخفاق أن يطرحه للتساؤل. ما يجرى التفكير فيه فى أوروبا يتحقق فى أمريكا - كل ما يختفى فى أوروبا يعاود الظهور فى سان فرانسيسكو!

كذلك فإن فكرة يوتوبيا متحققة هى فكرة تنطوى على تعارض paradoxale. إذا كانت السلبية، والمفارقة، والمتسامى، تحكم الفكر الأوروبى، فإن التعارض paradoxe هو الذى يسود الفكر الأمريكى، المزاج التعارضى لمادية مُنَجَزَة ، لبداية جديدة دوما، لإيمان مشرق بمشروعية الأمر الواقع نجده نحن مدهشا على الدوام، مزاج رؤية ساذجة للأشياء، فيما نتطور نحن داخل الغرابة المقلقة لما رأيناه من قبل déjà vu والتسامى الفيروزي للتاريخ.

نلوم الأمريكيين على أنهم لا يعرفون التحليل ولا صياغة المفاهيم. لكننا بذلك نقيم لهم محاكمة زائفة. فنحن الذين نتخيل أن كل شىء يبلغ ذروته فى التسامى، وأن لا شىء يوجد ما لم يكن قد تم التفكير فيه كمفهوم. و هم لا يكتفون بعدم القلق لذلك على الإطلاق، بل إن منظورهم هو العكس تماما. ليس صياغة مفاهيم عن الواقع، بل تحقيق المفاهيم، والتجسيد المادى للأفكار. أفكار الدين والأخلاق المستنيرة من القرن الثامن عشر بالتأكيد، لكن كذلك الأحلام، والقيم العلمية، والانحرافات الجنسية. التجسيد المادى للحرية، لكن كذلك للاوعى. استيهاماتنا للفضاء والاختلاق fiction ، لكن كذلك استيهاماتنا للإخلاص والفضيلة، أو أحلامنا المجنونة بالتقنية. كل ما حلمنا به على هذا الجانب من الأطلنطى لديه فرص التحقق على الجانب الآخر. هم يُصنّعون الواقعى انطلاقا من الأفكار، ونحن نحول الواقعى الى أفكار، أو الى إيديولوجيا. لا معنى هنا إلا لما يتم إنتاجه، لما يتبدى، ولا معنى بالنسبة لنا إلا لما يتم التفكير فيه، أو إخفاؤه. وحتى المادية ليست سوى فكرة فى أوروبا، لكن أمريكا هى المكان الذى تتجسد فيه عياناً فى الأداء التقنى للأشياء، وفى تحويل نمط تفكير الى نمط حياة، فى "تصوير" tournage الحياة، كما يقال فى السينما: أكشن!! Action وتبدأ الكاميرا فى الدوران. فمادية الأشياء، بالطبع، تعنى سينماتوغرافيتها.

*

الأمريكيون يؤمنون بالوقائع *faits*، لكنهم لا يؤمنون بالاصطناع *facticité*. لا يعرفون أن الواقعة مصطنعة، كما يدل اسمها. بهذا الإيمان بالوقائع، بالمصادقية الكلية لما يُصنع وما يُرى، واحتقار ما يمكن تسميته التبدّي، أو تلاعب التبدّيات، بهذه البداهة البراجماتية للأشياء: الوجه لا يخدع، والسلوك لا يخدع، العملية العلمية لاتخدع، لا شيء يخدع، لا شيء متضارب *ambivalent* (وهذا صحيح في العمق: فلا شيء يخدع، ليس ثمة كذبة، ليس ثمة سوى المشابهة *simulation*، التي هي بالضبط اصطناعية الوقائع)، بهذا المعنى فإن الأمريكيين مجتمع طوباوى حقيقى، بعقيدة الأمر الواقع *fait accompli* لديهم، بسداجة استنتاجاتهم، بإنكارهم للعنصرية الشريرة للأشياء. يجب أن يكون المرء طوباويا ليعتقد أن الأشياء يمكن أن تكون بهذه السداجة ضمن نظام إنسانى، مهما كان. كل المجتمعات الأخرى موسومة بنوع من الهرطقة، بنوع من التمرد، بنوع من الحذر تجاه الواقع، بإيمان غيبى بقوة شريرة وإمكان السيطرة على هذه القوة بالسحر، بالإيمان بقوة التبدّيات. هنا، ما من تمرد، ما من تشكك، المَلِك عارٍ، والوقائع حاضرة. من المعروف جيداً أن الأمريكيين مبهورون بذوى الجلد الأصفر، الذين يستشعرون فيهم شكلاً أرقى من الحيلة، شكلاً أرقى من غياب الحقيقة ذاك الذى يُفزعهم.

*

من المؤكد أن مفارقة المجتمع غائبة هنا، مثلها مثل بشاشة الحياة الاجتماعية. والسحر الكامن فى السلوكيات، على مسرح العلاقات الاجتماعية، تمت إزاحته بكامله نحو الخارج، فى الدعاية للحياة ونمط الحياة. هذا مجتمع يقوم بلا كلل بالدفاع عن نفسه، و يبرر وجوده بصورة دائمة. يجب أن يصبح كل شيء علنياً: ما تساويه، وما تكسبه، وكيف تحيا – ولا مكان هنا للعبة أكثر رهافة. "مظهر" *look* هذا المجتمع هو مظهر تجرى الدعاية له ذاتيا. ويشهد على ذلك العلم الأمريكى، الموجود فى كل مكان، فوق المزارع، والتجمعات السكانية، ومحطات الخدمة، والقبور فى المدافن، ليس كعلامة بطولية، بل بوصفه العلامة التجارية لماركة جيدة. إنه ببساطة شعار أفضل شركة عالمية ناجحة: الولايات المتحدة. لهذا السبب استطاع أنصار الواقعية المفرطة أن يرسموها بسداجة، دون مفارقة ودون احتجاج (جيم داين Jim Dine (4) فى الستينات)، كما استطاع فن البوب أن ينقل الى لوحاته، بنوع من الابتهاج، ذلك الابتذال المدهش لسلع الاستهلاك. لا شيء هنا من المحاكاة التهكمية العنيفة للسلام الوطنى الأمريكى التى قام بها جيمى هندريكس Jimmy Hendricks (5). وكل ما يمكن تبينه هنا، هو المفارقة الخفيفة، والمزاج المحايد لأشياء تم ابتذالها فعلاً، مزاج المنزل المتحرك *mobile home* والهامبورجر العملاق على لوحة إعلانات طولها خمسة أمتار، المزاج البوب والمغالى *hyper* المميّز تماماً للجو الأمريكى، حيث تبدو الأشياء وكأنها تتمتع بنوع من التساهل تجاه ابتذالها الخاص. لكنها متساهلة أيضاً تجاه هذيانها الخاص. و بوجه عام، فإنها لا تدعى أنها استثنائية، بل هى استثنائية ببساطة. للأشياء ذلك الإفراط *extravagance* الذى يشكل أمريكا الفريدة، اليومية، وليس هذا الإفراط سورياليا (فالسوريالية لا تزال إفراطاً جمالياً، شديد الأوروبية فى استلهاهم)، لا، فقد انتقل الإفراط هنا الى الأشياء. فالجنون، الذى يُعدُّ لدينا ذاتياً، أصبح هنا موضوعياً. والمفارقة،

الذاتية عندنا، صارت هنا موضوعية. والفانتازماجوريا [عرض الأوهام]، والمبالغة، اللذان يقعان لدينا في العقل والملكات العقلية، قد انتقلا هنا الى الأشياء.

مهما بلغ السأم، وجحيم الحياة اليومية في الولايات المتحدة أو في غيرها، سيظل السأم الأمريكي مثيرا للاهتمام أكثر ألف مرة من السأم الأوروبي، والفرنسي على وجه الخصوص. ربما لأن السأم هنا يولده الاتساع الشاسع، تولده رتابة الفضاءات المنبسطة، والغياب الجذري للثقافة. إنه نبتٌ محلى هنا، مثل نقيضه التام، نقيض السرعة، والرأسية، وتجاوز الحد الذي يُقارب الوقاحة *desinvolture*، واللامبالاة بالقيم التي تقارب اللا أخلاقية. بينما الابتذال الفرنسي من مخلفات الحياة اليومية البورجوازية، ولید نهاية ثقافة أرستوقراطية، تحوّل الى نزعة أسلوبية بورجوازية-صغيرة، بعد أن انكششت البورجوازية مثل الجلد السحري (6) *peau de chagrin* طوال القرن التاسع عشر. هنا يكمن الأمر برمته : ما يفصل بيننا هو جثة البورجوازية، هي التي تحمل بالنسبة لنا كروموسوم الابتذال، فيما نجح الأمريكيون في الحفاظ على بعض الدعابة في العلامات المادية للبداهة والثروة.

ويوضح هذا أيضاً أن الأوروبيين يحيون كل ما يتعلق بالإحصاء باعتباره قدراً تقيساً، فهم يقرأون فيه على الفور إخفاقهم الفردي ويلوذون بتحدٍ ممتعض لما هو كمّي. أما الأمريكيون، على العكس، فيحيون الإحصاء باعتباره حافظاً تفاؤلياً، باعتباره يمثل أبعاد حظهم السعيد، انضمامهم السعيد الى الأغلبية. هذا هو البلد الوحيد الذي يمكن فيه تمجيد الكم دون وخزٍ من ضمير.

نفس التساهل والدعابة اللذين تشهد عليهما الأشياء في ابتذالها، يُظهرهما الأمريكيون تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين. وسلوكهم الذهني عذبٌ، آيةٌ في الرقة. لا يزعمون لأنفسهم ما نسّميه الذكاء، ولا يشعرون أن ذكاء الآخرين يتهدهدهم. إنه بالنسبة لهم تركيبٌ فريد للعقل، لا يجب أن يغرق فيه المرء أكثر مما يجب. ومن ثم لا يخطر ببالهم تلقائياً أن ينكروا أو ينفوا، فتوجّههم الطبيعي هو الموافقة. حين نقول : أنا أتفق معك، فذلك لكي نجادل على الفور في كل شيء. أما حين يقول الأمريكي أنه متفق، فذلك لأنه، بكل صراحة، لا يرى سبباً للاعتراض. وغالباً ما يؤكد تحليلك بوقائع، أو إحصائيات، أو تجارب معاشة، تُجرّده فعلياً من كل قيمة مفهومية.

هذا التساهل- الذاتى الذى لا يخلو من دعابة يشهد على مجتمعٍ واثق من ثرائه وقوته، ويبدو أنه بطريقةٍ ما قد تمثل داخلها صيغة حنا أرنت Hannah Arendt التى بمقتضاها تكون الثورة الأمريكية، على نقيض كل ثورات أوروبا، ثورة ناجحة. لكن حتى الثورة الناجحة لها ضحاياها وشعاراتها القربانية. فعلى قاعدة قتل كنيدى يتأسس بشكل حاسم حكم ريجان الحالى. هذا القتل لم يتم أبدا الانتقام له، ولا توضيحه، ولا بد أن لذلك سببا وجيهاً. ناهيك عن قتل الهنود. إن طاقة قتل كنيدى هي التى ما زالت تشع على أمريكا الراهنة. أقول هذا لأوضح ليس التساهل فحسب، بل كذلك العنف الذى يقوم بالدعاية لنفسه، ويبرر نفسه، لهذا المجتمع، هذا العنف الظافر الذى يشكل جزءاً من الثورات الناجحة.

*

يصف توكفيل بحماس مزايا الديمقراطية والدستور الأمريكى، ممتدحا الحرية التى يُلهمها نمط الحياة، واطران العادات (أكثر من المساواة فى المكانة)، وتفوق تنظيم أخلاقى (أكثر من كونه سياسيا) للمجتمع. ثم يصف بوضوح مساو إبادة الهنود و وضع السود، دون أن يقيم أبدا مواجهة بين هذين الواقعين. كأن الخير والشر قد تطورا بشكل منفصل. هل يتأتى أن يستطيع المرء، وهو يشعر بقوة بهذا وذاك، أن يغفل العلاقة بينهما؟ هذا مؤكد، وما زال يواجهنا اليوم نفس التعارض : **فلن نحلّ أبدا لغز العلاقة بين الأسس السلبية للعظمة و بين تلك العظمة ذاتها.** أمريكا قوية و أصيلة، أمريكا عنيفة وبشعة – ولا يجب أن نسعى لا الى إلغاء هذ الجانب أو ذاك، ولا الى التوفيق بينهما.

لكن ماذا حدث لهذه العظمة المتناقضة، هذا الوضع الأصيل للعالم الجديد الذى وصفه توكفيل؟ ماذا حدث لهذه "الثورة" الأمريكية التى تمثلت فى الحل الدينامى للمصلحة الفردية المفهومة جيدا والأخلاق الجماعية المُلطّفة؟ هذه المشكلة لم تُحل فى أوروبا، ولهذا السبب غدّت طوال القرن التاسع عشر إشكالية التاريخ، والدولة، واختفاء الدولة، وهى الإشكالية التى لم تعرفها أمريكا . ماذا حدث للتحدى الذى رسم معالمه توكفيل : هل يمكن لأمة أن تبرم تحالفا للعظمة على الأساس الوحيد للمصلحة المبتذلة لكل فرد؟ هل يمكن أن يوجد تحالفٌ للمساواة والابتذال (فى المصالح، والحقوق، والثروة) يحافظ على بعدٍ بطولى وأصيل؟ (إذ ما هو المجتمع دون بعدٍ بطولى؟) باختصار: هل حقق العالم الجديد وعوده؟ هل مضى الى أقصى حدٍ فى الاستفادة من مزايا الحرية، أم مضى الى أقصى حدٍ فى جنى مثالب المساواة؟

غالبا ما يتم إرجاع انطلاق القوة الأمريكية الى الحرية وممارستها. لكن الحرية فى ذاتها لا تولّد القوة. إن الحرية، المفهومة على أنها فعلٌ عام، على أنها خطاب جماعى لمجتمع حول مشروعاته الخاصة و قيمه الخاصة، هذه الحرية قد ضاعت فى التحرير الفردى للعادات وفى التحريض (فالتحريض، كما هو معروف، هو أحد النشاطات الأساسية للأمريكيين). المساواة، إذن، ونتائجها، هى التى لعبت بالأحرى الدور الأكبر فى توليد القوة. إنها هذه المساواة التى قال عنها توكفيل فى صياغة رائعة : "ما أخذه على المساواة ليس أنها تدرب الرجال على البحث عن المتع المحظورة، بل أنها تستغرقهم تماما فى البحث عن المتع المسموح بها" ، هذه المساواة الحديثة للمكانات والقيم، عدم تميّز القسمات والطباع، هى التى تدعم وتولّد القوة. وحول هذه المساواة تعاد صياغة تناقض توكفيل: مع معرفة أن العالم الأمريكى يميل فى آن واحد صوب النقاها المطلقة (إذ تميل كل الأشياء الى التساوى والى إلغاء قوة بعضها البعض) وصوب الأصالة المطلقة – اليوم أكثر مما كان الحال منذ مائة وخمسين عاما مضت، حيث تضاعفت التأثيرات بفعل الامتداد الجغرافى. **إنه عالمٌ عبقرى فى تطويره الذى لا يلين للمساواة، و الابتذال، و اللامبالاة.**

دينامية المجموع هذه، ديناميكا إلغاء الاختلافات، هى التى تثير الحماس و تطرح، كما قال توكفيل، مشكلةً جديدة فى فهم المجتمعات الانسانية. إنه، علاوة على ذلك، لأمرٌ غير عادى أن نرى ضالة التغير الذى طرأ على الأمريكيين منذ قرنين، والأقل بكثير من المجتمعات الأوروبية الواقعة فى قبضة الثورات السياسية للقرن التاسع عشر، فقد احتفظ الأمريكيون، محتمين باتساع المحيط الذى يعادل انعزالا فى الزمن، بكامل المنظور الطوباوى والأخلاقى لرجال القرن الثامن عشر، أو حتى للطوائف الدينية البيوريتانية للقرن السابع عشر، الذى تم نقله وإدامته فى مأمن

من تقلبات التاريخ. هذه الهستيريا البيوريتانية والأخلاقية هي هستيريا المنفى، هستيريا اليوتوبيا. نحن نحاكمهم على هذا : لماذا لم تحدث الثورة هنا، في هذا البلد الجديد، بلد الحرية، والمعقل المتقدم للرأسمالية؟ لماذا لم تلق مقولتنا الأثيريتين ، "الاجتماعي"، و"السياسي"، قبولاً كبيراً هنا؟ الجواب أن القرن التاسع عشر الاجتماعي و السياسي لم يعبر الأطلنطي وأن الأشياء هنا تستمد الحياة من اليوتوبيا والأخلاق، من الفكرة العينية للسعادة و العادات، وكلها أشياء صفتها الإيديولوجيا السياسية في أوروبا، وعلى رأسها ماركس، لصالح مفهوم "موضوعي" للتغير التاريخي. من هذا المنظور نتهم الأمريكيين بالسذاجة التاريخية و النفاق الأخلاقي. لكن الأمر ببساطة أنهم، في وعيهم الجمعي، أقرب إلى نماذج تفكير القرن الثامن عشر : الطوباوي و البراجماتي، منهم إلى تلك النماذج التي فرضتها الثورة الفرنسية : النماذج الإيديولوجية و الثورية.

لماذا تكون الطوائف الدينية هنا بكل هذه القوة والدينامية؟ كان يجب أن يكون امتزاج الأعراق، والمؤسسات، والتقنيات، قد اكتسحها منذ زمن طويل. لكنها هنا احتفظت بشكلها الحيوي، بالاستنارة العملية لأصولها، وبهاجسها الأخلاقي. وبمعنى معين، فإن نموذجها-المتناهي الصغر هو الذي امتد الى أمريكا برمتها. منذ البداية، لعبت الطوائف الدينية الدور الأكبر في الانتقال الى اليوتوبيا المتحققة، التي هي المعادل للانتقال الى الفعل. إنهم هم من يحيون على اليوتوبيا (الكنيسة تعتبرها زندقةً مُفترضة) ويجهدون لتحقيق ملكة الرب على الأرض، بينما تقتصر الكنيسة على أمل الخلاص والفضائل اللاهوتية.

يبدو و كأن أمريكا ككل قد احتضنت مصير الطائفة الدينية : التجسيد المادي المباشر لكل منظورات الخلاص. ولا يجب أن يخدعنا تكاثر الطوائف الدينية الخاصة : فالحقيقة المهمة هي أن أمريكا بأسرها مشغولة بالطائفة الدينية بوصفها مؤسسة، بمطلبها الفوري للتقديس، بكفاءتها المادية، و دافعها القهري للتبرير، وكذلك بلا شك بجنونها وهذيانها.

إذا فقدت أمريكا هذا المنظور الأخلاقي لذاتها، فسوف تنهار. وربما لم يكن هذا واضحاً للأوروبيين، الذين تُعدُّ أمريكا بالنسبة لهم قوةً كلبية وأخلاقاً إيديولوجياً منافقة. لا نريد الاقتناع برؤية الأمريكيين الأخلاقية لأنفسهم، لكننا مخطئون. وحين يتساءلون بجدية بالغة لماذا تبغضهم الشعوب الأخرى، نخطئ لو ابتسمنا، لأن هذا الاستجواب الذاتي هو ذاته الذي يتيح فضاءح الووترجيت، والشجب الذي لا يرحم لفساد ونقائص مجتمعهم ذاته في السينما ووسائل الإعلام – حرية يمكن أن نحسدهم عليها، نحن المجتمعات المناققة حقاً، حيث تحتفى أمورنا الفردية والعامة خلف غلالةٍ من السر والاحترام، من التصنع البورجوازي .

*

الفكرة الأساسية عند توكفيل هي أن روح أمريكا تكمن في نمط حياتها، في ثورة العادات، في الثورة الأخلاقية. وهذه الثورة لا تُرسى شرعية جديدة ولا دولة جديدة، بل مشروعية عملية : هي مشروعية نمط الحياة. لم يعد الخلاص يعتمد على المقدس ولا على الدولة، بل على التنظيم العملي المثالي. فهل يجب أن نُرجع هذا الى المرسوم البروتستانتى بعلمنة الضمير، بإدماج introjection الحكم الإلهي ضمن الانضباط اليومي؟ الحقيقة أن الدين، مثلاً، قد دخل ضمن

العادات، مما يعنى أنه لم يعد قابلاً للتساؤل أو لاستجوابه بشأن أسسه، فلم تعد له قيمة متعالية. إنه الدين بوصفه نمط حياة. وبالمثل دخلت السياسة فى العادات، بوصفها آلةً براجماتية، لعبة، تفاعلاً، استعراضاً، مما يعنى أنها لم تعد تقبل الحكم عليها من وجهة نظر سياسية بالمعنى المحدد. لم يعد ثمة مبدأً إيديولوجى أو فلسفى للحكم، وهذا أكثر سذاجة وأكثر تعقيداً conjonturel فى آن واحد. هذا لا يعنى عدم وجود استراتيجيات، لكنها استراتيجيات ظرفية modales ، وليست نهائية. الجنسانية ذاتها دخلت فى مجال العادات، مما يعنى أنها لم تعد لها قيمة متعالية، لا بوصفها محظورة، ولا بوصفها مبدأ تحليل، أو متعة، أو انتهاك. تم إكسابها طابعاً "بيئياً"، و نفسياً، و علمانياً، للاستخدام اليومى. دخلت ضمن نمط الحياة.

تعنى أسبقية العادات، هيمنة نمط الحياة، أن الجانب الكلى المجرد للقانون يخضع للتنظيم العينى للتبادلات. القانون ليس إجماعياً : فأنت مطالب بمعرفته وإطاعته. لكن عصيانه يشرّفك أيضاً، والتاريخ مصنوع من تمجيد القانون وتمجيد من عصوه فى آن واحد. لكن ما يصدمك فى النظام الأمريكى، بالمقابل، أن عصيان القانون لا يُكسب المرء شرفاً، وانتهاك المرء له أو كونه استثنائياً لا يُكسبه مكانة. إنه الامتثال الأمريكى الشهير الذى نرى نحن فيه علامة على الضعف الاجتماعى والسياسى. لكن الحقيقة أن الناس متفقون هنا على التقنين العينى أكثر من اتفاقهم على التشريع المجرد، متفقون على الظروف غير الرسمية أكثر منهم على السلطة الرسمية. ماذا سيعنى أن تتحلل من قاعدة، أن تتحدى آلية؟ يجب فهم هذا التضامن التقليدى، البراجماتى، للعادات الأمريكية، الذى يقوم على أساس نوع من التحالف الأخلاقى، لا على أساس عقد اجتماعى، والذى يمكن مقارنته ليس بقواعد المرور على الطرق، التى يمكن أن يخالفها أى شخص، بل بالإجماع الذى ينظم مرور السيارات على الطرق السريعة . هذا الامتثال يقرب المجتمع الأمريكى من المجتمعات البدائية، حيث يكون من العبث أن يميّز المرء نفسه أخلاقياً بعضيان الطقس الجماعى. ليست هذه الامتثالية "ساذجة" إذن : فهى نتيجة تحالف على مستوى العادات، نتيجة مجموع من القواعد و الاشتراطات التى تقتضى، كمبدأ عمل، إنخراطاً شبه عفوى. بينما نحيا نحن على العصيان، الطقسى بدوره، لنسق قيمنا الخاص.

هذه الامتثالية تعكس حرية من نوع خاص : حرية غياب الأحكام المسبقة والادعاء. يمكن للمرء الإيحاء بأن غياب الأحكام المسبقة لدى الأمريكيين يرتبط بغياب ملكة الحكم. سيكون هذا ظلماً، لكن بعد وضع كل شيء فى الاعتبار، لماذا لا نفضل هذا الحل الخفيف على حلنا الثقيل والملىء بالادعاء؟ أنظر الى هذه الفتاة التى تخدمك فى **قاعة الضيوف** *guestroom* : إنها تقوم بذلك بكل حرية، وبابتسامة، بلا أحكام مسبقة ولا ادعاءات، كأنها جالسة فى مواجهتك. الوضع ليس على قدم المساواة، لكنها لا تتظاهر بالمساواة، فالمساواة متضمنة فى العادات. إنها النقيض التام للنادل السارترى، المستلَب تماماً عن تمثيله، والذى لا يحل هذا الموقف إلاً بالجوء الى ميتالغة مسرحية، متصنعاً بإيماءاته حرية أو مساواة لا يملكهما. ومن هنا الطابع الثقافى التعس لسلوكه، الذى هو، لدينا، سلوك كل الطبقات الاجتماعية تقريباً. هذا السؤال المتعلق بالمساواة ضمن العادات، بحرية العادات، لم يجر حلّه، ولا حتى طرحه حقاً، فى ثقافتنا على الإطلاق. لم يُطرح سوى السؤال السياسى أو الفلسفى عن المساواة، الذى يعيدنا الى تصنعنا الأبدى. أما فى أمريكا ، وهذه بديهية، فيصدمنا نسيانهم شبه الطبيعى للمكانة، وسهولة وحرية العلاقات. قد تبدو لنا هذه

السهولة مبتذلة أو سوقية، لكنها ليست مثيرة للسخرية على الإطلاق. ما يثير السخرية هو تصنعنا نحن.

يكفى أن ترى عائلة فرنسية تستقر على شاطئ كاليفورنى لتشعر بالثقل البشع لثقافتنا. تظل المجموعة الأمريكية مفتوحة، أما الخلية الفرنسية فتخلق لنفسها على الفور فضاءً مغلقاً، والطفل الأمريكى يتجول بعيداً، بينما يدور الطفل الفرنسى حول والديه. يحرص الأمريكيون على أن يكون لديهم على الدوام ثلج وبيرة، بينما يحرص الفرنسيون على الصدارة وعلى الرفاهية المسرحية. يتحرك الناس كثيراً على الشواطئ الأمريكية، لكن الفرنسي ينصب معسكراً فوق إقطاعيته من الرمال. يقدم الفرنسي عرضاً فى الإجازات، لكنه يحتفظ بسوقية فضائه البورجوازي- الصغير. يمكن قول أى شيء عن الأمريكيين، باستثناء أنهم سوقيون أو بورجوازيون صغار. بالتأكيد، ليس لديهم لطف أرسطوقراطى، لكنهم يملكون سهولة الفضاء، سهولة من تمتعوا دائماً بالفضاء، وهذا يعوّضهم عن آداب سلوك النبلاء و نسبهم. سهولة الحركة الجسدية التى يتيحها امتلاك الفضاء تعوّضهم بسهولة عن وهن السمات و الطباع. مبتذلون، لكنهم *إيزى easy* [مسترخون]. نحن ثقافة اختلاط مشوش، تنتج آداب سلوك وتصنع، ولديهم هم ثقافة فضاء ديموقراطية. نحن أحرار فى الروح، لكنهم أحرار فى إيماءاتهم. والأمريكى الذى يتجول فى الصحارى أو فى الحدائق القومية لا يعطى الانطباع بأنه فى عطفة. فالتجول هو عمله الطبيعى، فالطبيعة حدٌ ومكانٌ للفعل. لا شيء من الرومانسية المترهلة و السكون الغالى-الرومانى اللذين يسكنان أوقات فراغنا. لا شيء من تصنيفة الإجازة كما اخترعتها لدينا الجبهة الشعبية : هذا الجو المثبط لوقت الفراغ المنتزع من الدولة، ونستهلكه بالروح العامية و الاهتمام المسرحى بقضاء وقت فراغ كسبناه بشق الأنفس. الحرية هنا ليس لها تعريف سكونى أو سلبي، فتعريفها فضائى ومتحرك.

الدرس الأكبر من هذا كله، هو أن الحرية و المساواة، مثل السهولة واللفظ، لا توجدان إلا كمعطيات مسبقة. هذه هى المفاجأة المسرحية للديموقراطية : المساواة تكمن عند البداية، لا عند النهاية. وهذا ما يصنع الاختلاف بين الديموقراطية وبين نزعة المساواة : الديموقراطية تفترض المساواة عند البداية، بينما تفترضها نزعة المساواة عند النهاية. **تتطلب الديموقراطية أن يبدأ كل مواطنها السباق متكافئين. بينما تصر نزعة المساواة على أن ينهاه جميعا متكافئين.** (7)

غير أنه، حين لا يعود أحدٌ ينشغل بهاجس الحكم على الآخرين أو بالأحكام المسبقة، ينتج تسامحٌ أكبر بكثير، لكن تنتج كذلك لا مبالاة أكبر بكثير. بالكف عن الرغبة فى أن يراهم الآخرون، ينتهى بهم الأمر الى عدم رؤية بعضهم. هكذا يتقابل الناس فى الشارع دون أن ينظروا الى بعضهم، مما قد يبدو علامة على الاحتشام و التمدن، لكنه أيضاً علامة على اللامبالاة. هذه اللامبالاة ليست مصطنعة على الأقل. إنها فى نفس الوقت سمةٌ مُميّزة *qualité* و غياب للسمة المميزة.

*

حين أتحدث عن "نمط الحياة" الأمريكى، فذلك لأشدد على طبيعته الطوباوية، وابتذاله الأسطورى، وخاصيته الحلمية، وعظمته. هذه الفلسفة المحايثة ليس فقط فى التطور التكنولوجى

بل في تجاوز التكنولوجيات في تفاعلها المفرط، ليس فقط في الحادثة بل في مغالاة الأشكال الحديثة (سواء كانت الشبكة الرأسية لنيويورك أو الشبكة الأفقية للوس أنجلوس)، ليس فقط في الابتذال بل في الاشكال القيامية apocalyptiques للابتذال، ليس فقط في واقع الحياة اليومية، بل في الواقع المفرط لهذه الحياة الذي يقدم ، على النحو الذي هو عليه، كل خصائص الاختلاق fiction. وهذه الخاصية الاختلاقية هي التي تثير المشاعر. لكن الاختلاق ليس هو الخيال. إنه ما يستبق الخيال بتحقيقه واقعياً. ذلك هو نقيض ميلنا نحن، الذي هو استباق الواقع بتخيّله، أو الهروب منه بإعطائه طابعاً مثالياً. ولهذا السبب لن نسكن أبداً الاختلاق الحقيقي، فنحن منذورون للخيالي وللحنين الى المستقبل. أما نمط الحياة الأمريكي، فهو اختلاقي على نحو عفوي، لأنه تجاوز للخيالي في الواقع.

كذلك فإن الاختلاق ليس هو التجريد، وإذا كانت أمريكا تعاني من وهن إزاء التجريد، فإن هذا العجز يكتسب شكلاً مجيداً في الواقع الوحشي لأمريكا المتوسطة، في تمجيد الحياة اليومية، في تلك العبقرية الإمبريقية التي تدهشنا كثيراً. ربما لم تعد هذه الثورة الناجحة ناجحة بالمعنى الذي فهمه توكفيل، كحركة عفوية للعقل العام، كشكل عفوي ومتعين لتوسُّط العادات في تنظيم القيم الحديثة. يجب البحث عن الشكل المجيد للواقع الأمريكي في تحرير التكنولوجيات والصور أكثر مما في عمل المؤسسات، في الدينامية اللاأخلاقية للصور، في الحفل الماجن للسلع والخدمات، الحفل الماجن للقوة والطاقة غير المجدية (لكن من يستطيع أن يقول أين تتوقف الطاقة المجدية؟)، حيث تتألق روح الإعلان أكثر بكثير من الروح العام [لدى توكفيل]. لكن هذه، في نهاية المطاف، سمات تحرر، فذات بذاءة هذا المجتمع هي علامة تحرره. تحرر من كل المؤثرات، وبعضها مفرط ومنقّر تماماً، لكن عن حق : فذروة التحرر، نتيجه المنطقية، تكمن في الحفل الماجن الاستعراضي، في السرعة، في فورية التغير، في الإزاحة المعممة عن المركز. تُحرّر السياسة نفسها في الاستعراض، في التأثير الإعلاني الجامح، وتُحرّر الجنسية نفسها في كل أوجه انحرافها وشذوذها (بما في ذلك رفضها، الذي هو آخر سمات الموضة، والذي لا يتعدى كونه أثراً مُلطفاً للتحرر الجنسي)، وتُحرّر العادات، والأعراف، والجسد، واللغة، نفسها في تسارع الموضة. والانسان المتحرر ليس الإنسان في واقعه المثالي، في حقيقته الداخلية، أو في شفافيته – فالانسان المتحرر هو من يغير الفضاء، من يتجول، من يغير جنسه، وثيابه، وعاداته طبقاً للموضة، وليس طبقاً للأخلاق، من يغيّر رأيه طبقاً لنماذج استطلاع الرأي، وليس طبقاً لما يمليه عليه ضميره. هذا هو التحرر العملي، سواء شئنا أم أبينا، سواء شجبنا تبديده وبذاعته أم لا . فضلاً عن ذلك، يعلم أناس البلدان "الشمولية" جيداً أن هذه هي الحرية الحقيقية، ولا يحلمون إلا بها : الموضة، والموديلات، والنجوم المعبودين، وتلاعب الصور، والقدرة على التجوال من أجل التجوال، والإعلان، طوفان الإعلانات. يحلمون بالحفل الماجن، باختصار. ولابد من القول بأن أمريكا هي التي حققت عينيها، وتكنولوجياها، هذا الحفل الماجن للتحرر، هذا الحفل الماجن للامبالاة، للانفصال، للاستعراض، والتجوال. لا أدري ما الذي يتبقى من الثورة الناجحة التي تحدث عنها توكفيل، ثورة الحرية السياسية ونوعية الروح العام (فأمريكا تقدم اليوم الأفضل والأسوأ في هذا المجال)، لكنها بالتأكيد حققت هذه الثورة، بينما نحن، بعد أن أخفقتنا في ثوراتنا التاريخية، ثوراتنا المجردة، في طريقنا للإخفاق في هذه الثورة أيضاً. إننا نمتص رغماً عنا هذه النتائج المنطقية للحادثة، لثورة نمط الحياة، حتى في جوانب إفراطها، بجرعات علاج بالمثل homéopathiques، بمزيج من الانبهار والضعيفة. إننا غارقون في أوروبا في عبادة

الاختلاف différence، ومن ثم فإننا معوّقون فيما يخص الحادثة الجذرية، التى تقوم على أساس اللامبالاة indifférence. إننا نصبح حدثيين و لا مبالين رغماً عنا، ومن هنا افتقار حدثتنا للبهاء، من هنا افتقار مشروعاتنا للعبقريّة الحداثيّة. إننا لا نملك حتى العبقريّة الشريرة للحادثة، تلك التى تدفع التجديد الى حد الإفراط، وتعيد بهذه الطريقة اكتشاف نوع من الحرية الفانتازية.

*

كلّ ما تم ببطولة لعبه وتدميره فى أوروبا تحت راية الثورة والإرهاب [بالأحرف الكبيرة]، قد تحقق عبر الأطلنطى بأبسط الطرق وأشدها إمبيريقية (يوتوبيا الثروة، والقانون، والحرية، والعقد الاجتماعى، والتمثيل). وبالمثل، فإن كل ما حلمنا به تحت الراية الراديكالية للثقافة المضادة، لتخريب المعنى، وتدمير العقل، ونهاية التمثيل، كل هذه اليوتوبيا-المضادة التى أطلقت فى أوروبا عنان الكثير من الاختلاجات النظرية والسياسية، الجمالية والاجتماعية، دون أن تتحقق فعلا على الإطلاق (ومايو 68 هو أحد الأمثلة الأخيرة)، كل ذلك تحقق هنا، فى أمريكا، بأبسط الطرق وأشدها جذرية. **لقد تحققت اليوتوبيا هنا، ويجرى تحقيق اليوتوبيا-المضادة** : اليوتوبيا-المضادة لنزع العقل، لنزع-التوطين déterritorialisation، لعدم تحدّد الذات واللغة، لتحديد كل القيم، لموت الثقافة. أمريكا تحقق كل شيء، وتمضى فى ذلك بطريقة إمبيريقية ومتوحشة. نحن لا نفعل سوى أن نحلم وننتقل الى الفعل من أن لآخر – أما أمريكا، فتستخلص النتائج المنطقية، البراجماتية، لكل ما يمكن إدراكه. وبهذا المعنى، فإنها ساذجة وبدائية، لا تدرى شيئاً عن مفارقة المفاهيم، ولا تدرى شيئاً عن مفارقة الإغواء، ولا تطرح مفارقة حول المستقبل والمصير، بل تعمل، وتجسد الأشياء مادياً. تُعارض الراديكالية الطوباوية بالراديكالية الإمبيريقية، التى تستطيع هى وحدها تجسيدها عينياً على نحو درامى. نتفلسف نحن حول نهاية حشدٍ من الأشياء، لكن هنا تجد هذه الأشياء نهايتها. هنا لم يعد ثمة موطن territoire (لكن فضاء هائل بالضبط)، هنا وجد الواقعى والخيالى نهايتهما (فاتحين كل الفضاءات للمشابهة). هنا، إذن، يجب البحث عن النموذج المثالى لنهاية ثقافتنا. إن نمط الحياة الأمريكى، الذى نعتبره ساذجاً أو لا قيمة له ثقافياً، هو الذى سيقدم لنا اللوحة التحليلية الكاملة لنهاية قيمنا – التى تم التنبؤ بها بلا جدوى فى بلادنا – بالاتساع الذى يمنحها إياه البعد الجغرافى والذهنى لليوتوبيا.

لكن، هل هذه حقاً يوتوبيا متحققة، هل هذه ثورة ناجحة؟ نعم، هذه هى ! ماذا تود أن تكونه ثورة "ناجحة"؟ إنها الجنة. سانتا باربارا جنة، وديزنى لاند جنة، والولايات المتحدة جنة. الجنة هى مجرد جنة، ولو كانت جنائزية، ورتبية، وسطحية. لكن هذه هى الجنة. ليس ثمة أخرى. وإذا كنت تقبل استخلاص نتائج أحلامك، ليس الأحلام السياسية و العاطفية فحسب، بل كذلك النظرية والثقافية، فلا بد أن تنظر الى أمريكا، اليوم أيضاً، بنفس الحماس الساذج للأجيال التى اكتشفت العالم الجديد. بنفس حماس الأمريكيين لنجاحهم الخاص، وهمجيتهم الخاصة، وقوتهم الخاصة. ولو لم تفعل، فلن تفهم شيئاً، ولن تعود تدرك شيئاً عن تاريخك الخاص، أو عن نهاية تاريخك. لأن أوروبا لم يعد يمكن فهمها انطلاقاً منها هى ذاتها. الولايات المتحدة أكثر غموضاً :

وغموض الواقع الأمريكي يتجاوز اختلاقاتنا fictions وتفسيراتنا. إنه غموض مجتمع لا يسعى الى منح نفسه لا معنى ولا هوية، ولا يخطر لا في التسامى ولا في الجماليات ويخترع، لهذا السبب بالضبط، الرأسية الحديثة العظيمة الوحيدة في مبانيه، التي تمثل أعظم ما في النظام الرأسي، لكنها لا تخضع لقواعد التسامى، التي تمثل العمارة الأشد إعجازاً، لكنها لا تخضع لقوانين علم الجمال، التي هي فائقة الحداثة، وفائقة الوظيفة، لكن فيها شيئاً غير تأملى، وبدائى، وهمجى – إن ثقافة، أو لثقافة، مثل هذه، تظل بالنسبة لنا لغزاً.

الاستبطان introversion، والتأمل، وتأثيرات المعنى المختلفة تحت مظلة مفهوم معين، هي أشياء أليفة بالنسبة لنا. لكن الشيء المتحرر من مفهومه، الحر في الانخراط في التخرج extraversion وفي تكافؤ كل التأثيرات، ملغزٌ بالنسبة لنا. التخرج بالنسبة لنا لغز - تماماً مثلما كانت السلعة بالنسبة لماركس : طُلسماً هيروغليفياً للعالم الحديث، غامضاً بالضبط لأنه متخرج، شكلاً يحقق ذاته في أدائه الخالص وفي دورته الخالصة (هاللو كارل !).

*

بهذا المعنى، فإن أمريكا برمتها بالنسبة لنا صحراء. الثقافة هناك همجية : فهي تضحى بالعقل وبكل الجماليات، في عملية تدوينٍ حرٍ في الواقع. ولاشك أنها اكتسبت هذه الهمجية من حقيقة نزع مركزها الأصلي صوب الأراضي البكر، لكنها اكتسبتها أيضاً بلا شك دون إرادة الهنود الذين دمرتهم. يظل الهنود الميَّت الضامن الخفى لهذه الآليات البدائية، حتى في العصر الحديث للصور و التكنولوجيات. ربما لم يفعل الأمريكيون، التي ظنوا أنهم دمروا هؤلاء الهنود، سوى أن نشروا عدوهم؟ لقد شقوا الصحراء، وميزوها، واخترقوها بالطرق السريعة، لكن من خلال تفاعل غامض، اتخذت مدنهم بنية ولون الصحراء. لم يدمروا الفضاء، بل جعلوه لا نهائياً ببساطة عن طريق تدمير مركزه (ومن هنا المدن القابلة للامتداد الى ما لانهاية). وبهذه الطريقة، فتحوا فضاء حقيقياً للاختلاق. فى "العقل الهمجى" أيضاً ليس ثمة كونٌ طبيعى، ولا تسامى للإنسان، ولا للطبيعة، ولا للتاريخ – الثقافة هي كل شيء أو لا شيء، حسب الطريقة التي تنظر بها إليها. وهذا الغياب للتمايز موجودٌ فى ذروة المشابهة الحديثة. هنا أيضاً، لا يوجد كونٌ طبيعى، ولا يمكنك التمييز بين صحراء وبين حاضرة كبرى. ليس الأمر أن الهنود كانوا قريبين بشكل لا نهائى من الطبيعة، ولا أن الأمريكيين بعيدين عنها بشكل لا نهائى : فكلاهما ينتميان الى مثالية الطبيعة، مثلما ينتميان الى مثالية الثقافة، وكلاهما غريب بنفس القدر عن هذه وعن تلك.

ليس ثمة ثقافة هنا، ليس ثمة خطاب ثقافى. ما من وزارة، ولا لجان، ولا إعانات، ولا ترويج. لا شيء هنا من النعمة الثقافية المتكررة التي تتخرط فيها فرنسا بأسرها، صنمية التراث هذه – لا شيء هنا من هذا الاستحضار العاطفى للثقافة، الذى هو اليوم بالإضافة الى ذلك حمائى ويخص الدولة étatique. مركز بوبور Beaubourg مستحيلٌ هنا، مثلما هو مستحيلٌ فى إيطاليا (لأسباب أخرى). ليست المركزية وحدها هي التي لا توجد [هنا]، بل كذلك فكرة ثقافة راقية cultivée، تماماً مثلما لا توجد فكرة دين إلهى ومقدس . لا ثقافة عن الثقافة ، ولا دين عن الدين. يجب الحديث بالأحرى عن ثقافة "أنثروبولوجية"، تتشكل فى اختراع عادات ونمط حياة. وهذه وحدها هي التي تثير الاهتمام، مثلما أن شوارع نيويورك، وليس متاحفها، هي

وحدها التى تثير الاهتمام. وحتى فى الرقص، والسينما، والرواية، والقص، والعمارة، فى كل ما هو أمريكى نوعي ثمة شىء همجى، شىء لم يعرف اللعة والحذقة، لم يعرف بلاغة ومسرحية ثقافتنا البورجوازية، لم يترزين ببهرج التميز الثقافى.

ليست الثقافة هنا ذلك الترياق اللذيذ لكل داء، الذى نستهلكه فى أوروبا فى فضاء عقلى طقسى مقدس، والذى له الحق فى زاويته الخاصة فى الصحف وفى العقول. الثقافة هى الفضاء، هى السرعة، هى السينما، هى التكنولوجيا. وهى أصيلة، إذا أمكن أن نقول هذا عن أى شىء. ليست السينما كشىء إضافى، ولا السرعة كشىء إضافى، ولا التكنولوجيا كشىء إضافى (فى كل مكان فى أوروبا يشعر المرء بأن هذه الحادثة مضافة، ومتنافرة، ومتخلفة عن زمنها). السينما حقيقية، فى أمريكا، لأن كل الفضاء، وكل نمط الحياة سينمائيان. وهذا الانقطاع بين الاثنين، هذا التجريد الذى نرثى له غير موجود : الحياة سينما.

هذا هو السبب فى أن البحث عن أعمال فنية أو عروض راقية هنا بدا لى دوما أمرا مملا و فى غير مكانه. علامة على المركزية-العرقية الثقافية. إذا كانت اللاتقافة هى الأصيلة، فيجب أن يتشبث المرء باللاتقافة. وإذا كان لمصطلح الذوق أى معنى، فإنه يأمرنا بالأ نصدّر مطالبنا الجمالية الى حيث لا تنتمى. وحين ينقل الأمريكيون أديرتنا الرومانية الى كلويسترز Cloysters نيويورك، فإننا لا نغفر لهم هذا العبث. فدعونا لا نفعل نفس الشىء بنقل قيمنا الثقافية الى أمريكا. ليس من حقنا ذلك الخلط. لكن ذلك من حقهم بمعنى معين، لأن لديهم الفضاء، ولأن فضاءهم انكسار لكل الفضاءات الأخرى. وحين يجمع بول جيتى Paul Getty فى مالىبو Malibu، فى فيلا من طراز بومبى على ساحل الباسيفيكي، لوحات رمبرانت، والانطباعيين، والتماثيل الإغريقية، فإنه يطبع المنطق الأمريكى، المنطق الباروكى الخالص لديزنى لاند. ويكون أصيلا، فهذا عمل رائع للكليبة، والسذاجة، والكيثش kitsh، والدعابة غير المقصودة – شىء مذل فى لا-معناه. إن تلاشى الجمالى والقيم النبيلة فى الكيثش والواقع المفرط لأمر مذل، تماما مثل تلاشى التاريخ والواقع فى التلفزة. ويجب أن تستمد بعض اللذة من هذه البرجماتية الوحشية للقيم. إذا لم تحفظ فى رأسك سوى متحفك الخيالى، فسوف يفوتك ما هو جوهري (الذى هو اللاجوهري بالضبط).

من المؤكد أن الإعلانات التى تقطع الأفلام فى التلفزيون هى إهانة للعادات الحسنة، لكنها تؤكد ببراعة أن أغلب الإنتاج التلفزيونى لا يبلغ أبدا حتى المستوى "الجمالى"، وأنه فى العمق من نفس نوع الإعلانات. فأغلب الأفلام، بما فى ذلك الكثير من أفضلها، مكونة من نفس الحكايات الرومانسية اليومية : سيارات، وتليفونات، وسيكولوجيا، وماكياج – توضيح خالص وبسيط لنمط الحياة. ولا تفعل الإعلانات شيئا آخر : فهى تقن نمط الحياة بواسطة الصورة، وتجعل من المجموع دائرة مغلقة حقيقية. وإذا كان كل ما يجرى فى التلفزيون، دون تمييز، يشكل وجبة منخفضة السعرات، أو حتى دون سعرات على الإطلاق، فما فائدة الشكوى من الإعلانات؟ إنها، بانعدام قيمتها، تبرز المستوى الثقافى لما يحيط بها.

الابتذال، وانعدام الثقافة، والسوقية ليس لها هنا نفس المعنى مثلما فى أوروبا. ربما كان هذا مجرد إلهام لشخص أوروبى، انبهار بأمريكا غير واقعية؟ ربما كانوا سوقيين ببساطة، ولا أفعل أنا سوى أن أحلم بهذه الميثة-سوقية؟ *Who knows ? [من يدرى]*. أود أن أجدد الرهان الشهير:

إذا كنت مخطئاً، فلن تخسروا شيئاً، وإذا كنت مصيباً، فإنكم تكسبون كل شيء. الحقيقة هي أن ابتذالاً معيناً، أن سوقية معينة، يبدو أن لنا غير مقبولين في أوروبا، يبدو أن لنا هنا أفضل من مقبولين : فانتين. الحقيقة أن كل تحليلاتنا على أساس الاستلاب، والامتثالية، والتوحيد القياسي ، ونزع الإنسانية، تنهار من تلقاء ذاتها : حين ننظر إلى أمريكا، فإن التحليلات ذاتها هي التي تبدو سوقية.

لماذا يكون نص مثل التالي (بقلم ج. فاي G. Faye) صادقا وزائفا تماما في آن واحد؟ "تفرض كاليفورنيا نفسها باعتبارها الأسطورة الكلية لعصرنا. . . تعددية عرقية، تكنولوجيا مهيمنة، نرجسية "سيكو"، جريمة حضرية وتشبّع سمعي بصري : بوصفها سوبر-أمريكا، تفرض كاليفورنيا نفسها باعتبارها النقيض المطلق لأوروبا الأصلية. . . من هوليوود إلى عصير-الروك، من إي تي ET إلى حرب الكواكب، من الرغبة الجامحة في الاحتجاج-الزائف في الجامعات إلى تهويمات كارل ساجان Carl Sagan، من الغنوصيين الجدد لسيليكون فالي إلى صوفي التزحلق على الأمواج wind-surf، من الجورو [المرشدين الروحيين] الهنود-الجدد إلى الأيروبيكس ، من الجري إلى التحليل النفسي كشكل للديموقراطية، من الإجماع كشكل من التحليل النفسي إلى التلفزيون كممارسة للاستبداد، رسخت كاليفورنيا نفسها كمركز عالمي للشبيه وغير الأصل، كمركب مطلق للساليانية اللطيفة cool . بوصفها أرضا هستيرية، بؤرة تجمع من لا جذور لهم، فإن كاليفورنيا هي موقع اللا-تاريخ، اللا-حدث، لكنها في نفس الوقت موقع التدويم والإيقاع المتصل للموضة، أي الاهتزاز ضمن السكون، هذا الاهتزاز الذي يطاردها، إذ يتهدها الزلزال كل لحظة.

"لم ت اخترع كاليفورنيا شيئا : فقد أخذت كل شيء من أوروبا، ثم أعادته لها مشوها، مجردا من المعنى، بعد أن طلته بوميض ديزني لاند. مركزا عالميا للجنون اللذيذ، مرآة لمخلفاتنا وانحطاطنا، ترفرف كاليفورنيا اليوم، هذه التنويع الساخنة للنزعة الأمريكية، فوق الشباب وتفرض نفسها كشكل عقلي لمرض الإيدز. . . في مقابل القلق الثوري للأوروبيين، تفرض كاليفورنيا موكبها الطويل من الأشباه-الزائفة : محاكاة ساخرة للمعرفة في جامعات بلا طقوس، محاكاة ساخرة للحضرية في تكديس لوس أنجلوس، محاكاة ساخرة للتكنولوجيا في سيليكون فالي، محاكاة ساخرة لعلم الخمور بأنبذة ساكرامنتو الفاترة، محاكاة ساخرة للدين بالمرشدين الدينيين والطوائف الدينية، محاكاة ساخرة للشبقية مع البيتش بويز beach-boys ، محاكاة ساخرة للمخدرات بالأسيد (؟)، محاكاة ساخرة للنزعة الاجتماعية بالـ "جاليات" communities . . . وحتى الطبيعة في كاليفورنيا ليست سوى محاكاة هوليوودية ساخرة للمناظر الطبيعية المتوسطة العتيقة : بحر مفرط الزرقة (!؟)، جبال مفرطة الخشونة، مناخ مفرط الرقة أو مفرط الجفاف، طبيعة غير قابلة للسكنى، زال عنها السحر، وهجرتها الآلهة : أرض مشؤمة تحت شمس مفرطة اللعان. وجهٌ غير معبرٌ لموتنا، فصحيح أن أوروبا ستموت وقد لوحتها الشمس، مبتسمة وجلدها قد حمصته شمس العطلة."

كل هذا صحيح(إذا شئت)، حيث أن النص نفسه على صورة النموذج النمطي الهستيري الذي يسبغه على كاليفورنيا. وفضلا عن ذلك يخفى هذا الخطاب انبهارا معيناً بموضوعه. لكن إذا كان باستطاعة المرء أن يقول عكس ما يقوله تماما بنفس الألفاظ، فذلك لأن ج. فاي لم يستطع

هو نفسه أن يُحدث هذا العكس. لم يستطع أن يدرك كيف تنقلب الأشياء، عند الحد الأقصى لهذه الثقافة، لهذا الجحيم الصامت والمكثف الذى يصفه. لم يستطع إدراك تحدى هذا "التسامى الهامشى" بالضبط حيث يجد عالمٌ كامل نفسه فى مواجهة هامشه ، فى مواجهة مشابهته "الهستيرية" - ولم لا؟ لم لا تكون لوس أنجلوس محاكاة ساخرة للمدن؟ لم لا يكون سيليكون فالى محاكاة ساخرة للتكنولوجيا؟ محاكاة ساخرة للنزعة الاجتماعية، وللشبقية، وللمخدرات، وحتى للبحر (المفرط الزرقة!) وللشمس (المفرطة اللعان!). ناهيك عن المتاحف والثقافة. كل هذا محاكاة ساخرة بالتأكيد! وإذا كانت كل هذه القيم لا تحتتمل المحاكاة الساخرة، فهذا يعنى أنها لم تعد ذات أهمية. نعم، كاليفورنيا (وأمريكا معها) هى مرآة انحطاطنا نحن، لكنها هى ليست منحنىة على الإطلاق، فهى تتمتع بحيوية فائقة الواقعية، وتملك كل طاقة المشابهة. "هى المركز العالمى لغير الأصل" - بالتأكيد : وهذا ما يصنع أصالتها وقوتها. يمكنك هنا أن تتحقق دون أدنى جهد من هذا التصاعد فى قوة الشبيه. لكن، هل جاء هنا على الإطلاق؟ لو كان قد جاء لعرف أن مفتاح أوروبا لا يكمن فى ماضيها المكتمل، بل فى هذا التوقع الهذيانى والمحاكاة الساخرة الذى هو العالم الجديد. إنه لا يرى أن كل تفصيلة فى أمريكا يمكن أن تكون مُنفرة أو تافهة، لكن المجموع هو الذى يتجاوز خيالنا - لأول وهلة يمكن لكل تفصيلة فى وصفه أن تكون دقيقة، لكن المجموع هو الذى يتجاوز حدود السخف.

*

الجديد فى أمريكا هو صدام المستوى الأول (البدائى والهمجى) والنمط الثالث (الشبيه المطلق). وليس ثمة مستوى ثانٍ. وهذا وضع يصعب علينا إدراكه، نحن الذين منحنا التميز دائما للمستوى الثانى، التأملى، الانعكاسى، مستوى الوعى النفسى. لكن ما من رؤية لأمريكا تجد مبررها خارج هذا العكس [لقيمنا] : ديزنى لاند، هى الأصلية! السينما ، والتلفزيون، هما الواقع! **الطرق السريعة** *freeways*، وسلسلة سوبرماركت سيفوييز *Safeways*، وخطوط الأفق *skylines*، والسرعة، والصحارى، هذه هى أمريكا ، وليس المتاحف، ولا الكنائس، ولا الثقافة... فلنمنح هذا البلد الإعجاب الذى يستحقه، ولنوجه أبصارنا صوب حماقة عاداتنا نحن، هذه فائدة وممتعة الرحلات. كى ترى وتحس أمريكا، يجب أن تكون قد شعرت للحظة على الأقل فى دغل قلب مدينة *downtown* ، فى بينتيد ديزرت [الصحراء الملونة]، أو عند منحنى طريق سريع، بأن أوروبا قد تلاشت. يجب أن تكون قد تساءلت للحظة على الأقل : "كيف يمكن أن يكون المرء أوروبيا؟".

** **

نهاية القوة ؟

سنوات الخمسينات فى الولايات المتحدة، هى لحظة الذروة (*when things were going on*) [حين كانت الأمور على ما يرام]، وما زال الحنين إليها محسوسا : الحنين الى نشوة القوة، الى قوة القوة. وفى أعوام السبعينات، كانت القوة لا تزال موجودة، لكن السحر قد بطل. كانت تلك لحظة الحفل الماجن *orgie* (الحرب، الجنس، مانسون، وودستوك). واليوم انتهى الحفل الماجن. وأصبحت الولايات المتحدة بدورها، مثل الجميع، فى مواجهة نظام عالمي لئى، وضع عالمي لين. أصبحت القوة عاجزة.

لكن إذا لم تعد الولايات المتحدة المركز الاحتكارى للقوة العالمية، فليس ذلك لأنها فقدتها، بل ببساطة لأن المركز لم يعد موجودا. لقد أصبحت، بالأحرى، مدارَ قوةٍ متخيلة يشير إليها الجميع. من وجهة نظر المنافسة، والهيمنة، و"الإمبريالية"، فقدت أرضا بالتأكيد، أما من وجهة النظر الأسية *exponentiel*، فقد كسبت : أنظروا الى الصعود غير المفهوم للدولار، الذى لا علاقة له بأى تفوق اقتصادى لكنه رغم ذلك مذهل، أنظروا الى الصعود الباهر لنيويورك، وكذلك، و لم لا، الى النجاح العالمى لمسلسل *dallas* . تظل أمريكا تحتفظ بالقوة، السياسية أو الثقافية، بوصفها أحد المؤثرات الخاصة.

*

أصبحت أمريكا بأسرها كاليفورنية، على صورة ريجان. بوصفه ممثلا سابقا، وحاكما سابقا لكاليفورنيا ، قام ريجان بنشر رؤيته السينماتوغرافية و النشوانية، التخارجية *extravertie* والإعلانية، للفراديس الاصطناعية للغرب الأمريكى ، لتشمل كل أمريكا. أقام نوعا من الابتزاز الذى تمارسه الحياة السهلة، مجدداً بذلك الحلف الأولى لليوتوبيا المتحققة. إلا أن التوليفة المثالية التى وصفها توكفيل يبدو أنها اندحرت: فرغم أن الأمريكيين قد حافظوا على حسٍ حاد بالمصلحة الفردية، لا يبدو أنهم حافظوا على المعنى الذى يمكن إعطاؤه جماعيا لأفعالهم. ومن هنا الأزمة الراهنة، العميقة والحقيقية، والتى تميل الى إعادة تأهيل فكرة جماعية، قيمة يمكن أن توجه السلوكيات كأنما بصورة عفوية، ويمكن أن تقدم نفسها كمحصلة مثالية للقوى [الفاعلة]. هذا هو نجاح ريجان فى مشروعه للإحياء الوهمى للمشهد الأولى الأمريكى. " *America is*

"back again". اتخذ الأمريكيون ملاذاً في ظل سهولة الحياة، في نزعة وهم مظفرة، بعد أن أصابته الهشاشة حرب فيتنام، التي كانت غير مفهومة بالنسبة لهم مثل اندفاع رجال خضر ضئيلين في قصة بالصور bande dessinée، وفضلاً عن ذلك عاملوها بنفس الطريقة، من على مسافة، مثل حرب تلفزيونية، دون أن يفهموا إدانة العالم لهم ودون أن يستطيعوا فهم عدوهم سوى باعتباره اليوتوبيا المتحققة للشر: الشيوعية، لأنهم هم اليوتوبيا المتحققة للخير. وهذا أيضاً كاليفورنيّ تماماً، لأن الشمس لا تسطع دائماً في كاليفورنيا في الحقيقة، فغالبا ما تلعب الشمس هناك مع الضباب، أو مع الضباب الممتزج بالدخان في لوس أنجلوس. ورغم ذلك فإنك تحتفظ بذكرى مشمسة للمكان، بذكرى شاشة مشمسة. هكذا هو سراب ريجان.

*

الأمريكيون، مثل غيرهم، لا يرغبون في التساؤل عما إذا كانوا يؤمنون أم لا بمزايا زعمائهم، أو حتى بواقع السلطة. فقد يؤدي بهم هذا إلى ما لا تُحمد عُقباه. وهم يفضلون أن يتصرفوا وكأنهم يؤمنون بهم، شريطة أن تتم إدارة إيمانهم. الحكم يعني اليوم إعطاء العلامات المقبولة للمصادقية. الأمر مثلاً في الإعلانات، ويتحقق منها نفس التأثير: الالتزام بسيناريو، سواء كان سياسياً، أو إعلانياً. وسيناريو ريجان هو الإثنان في نفس الوقت، وهو ناجح أيضاً.

كل شيء يعتمد على السمعة. الآن وقد تم تحويل المجتمع بشكل حاسم إلى مشروع، أصبح كل شيء متضمناً في النشرة الموجزة لأداء الشركة، ويجب على مديره أن ينتجوا كل علامات **المظهر look** الإعلان. ويصبح أدنى إخفاق أمراً لا يغتفر، لأنه سينتقص من الأمة بأسرها. ويمكن للمرض ذاته أن يشكل جزءاً من **المظهر**، مثل سرطان ريجان. وبالمقابل، لا أهمية للضعف أو الوهن السياسيين. فالمهم هو الصورة فحسب.

هذا الإجماع على المشابهة أقل هشاشة مما يُعتقد، لأنه أقل عرضة بكثير لاختبار الحقيقة السياسية. وتدين كل حكوماتنا الحديثة للتنظيم الإعلان للرائى العام بنوع من الميتا-استقرار السياسى. ولم تعد الأخطاء، والفضائح، والإخفاقات تنطوى على كارثة. فالأمر الأساسى هو جعلها قابلة للتصديق وتوعية الجمهور بالجهود المبذولة في هذا الاتجاه. الحصانة "الإعلانية" للحكومات أشبه بحصانة الماركات الكبرى لمساحيق الغسيل.

لم يعد أحدٌ، في كل البلاد، يحصى أخطاء الزعماء السياسيين، التي كان يمكن أن تتسبب في سقوطهم ذات حين، ويتعايش معها الجميع اليوم بسهولة ضمن نسقنا لمشابهة الحكومة وللإجماع من خلال اللامبالاة. لم يعد الشعب يعتز بزعمائه، ولم يعد هؤلاء يعتزون بقراراتهم. ويكفى أقل تعويض وهمى لاستعادة الثقة الإعلانية. والمثال على ذلك عملية جرينادا (1) Grenade بعد القتلى الثلاثمائة في لبنان. فهي سيناريو دون مخاطر، وإخراج محسوب، وحدث مصطنع، ونجاح مضمون. وفضلاً عن ذلك شهد الحدثان، لبنان وجرينادا، على نفس اللا-واقع السياسى: فالأول، الإرهابى، خارج تماماً عن السيطرة؛ والثانى، المزيف تماماً، خاضع للسيطرة بشكل مفرط. ولم يكن لهذا ولا ذاك معنى من وجهة نظر فن الحكم. ثمائل الإثنان في الخواء، الذى يعرّف المشهد السياسى اليوم.

*

ثمة نفس الإعلان عن الذات، ونفس البحث عن المصادقية، ونفس عبادة السمعة، عند الجيل الريحاني الجديد. فهو جيل دينامي، مغتبط – أو بالأحرى مولّد للدينامية، والغبطة. السعادة بالنسبة لهذا الجيل ليست فكرة جديدة، ولا النجاح فكرة دافعة، لأن لديه هذا كله. ليسوا إذن مناضلي السعادة والنجاح، بل متعاطفين معهما. إنه الجيل الذي أتى من الستينات و السبعينات، لكنه تخلص من كل حنين إلى تلك السنوات المجنونة، وكل تأنيب ضمير تجاهها، وحتى كل وعى باطن بها. جيلٌ تظهر من آخر آثار الهامشية كأنما بعملية جراحية تجميلية : وجوهٌ جديدة، وأظافر جديدة، وخلايا مٌخية مجلوة ومُدججة بالسوفت وير. جيلٌ لا يحركه الطموح، ولا تحفزه طاقة الكتب، لكنه عاد ليتمحور تماما حول ذاته، واقّع في حب الأعمال لكونها نوعا من الأداء والإنجاز التقني أكثر من كونها سببا للربح أو المكانة. جيل يدور في كل مكان حول وسائل الإعلام، وحول الدعاية، والمعلوماتية. لم يعودوا وحوش الأعمال [البيزنس]، بل شغيلةً palotins لصناعة الترفيه showbiz لأن البيزنس ذاته أصبح شوبيزنس. *Clean and perfect*. إنهم اليابى (2) Yuppies. الاسم نفسه يرن بهذا التحول السعيد. لم تفصلهم عن الجيل الأسبق، إعادة تقييم تمزق نياط القلب، بل مجرد استئصال، فقدان ذاكرة، غفران - النسيان اللاواعي بعض الشيء الذي يعقب حدثا بالغ القوة. ليس اليابى فارين من التمرد، بل انهم جنس جديد واثق من نفسه، فاقد للذاكرة، مبرّئين، يتحركون بارتياح في عالم العروض، لا مبالين ذهنيا بأى غاية سوى التغيير والتسويق (تسويق كل شيء : المنتجات، والبشر، والبحث، والوظائف، ونمط الحياة !). كان يمكن توقّع أن يفسح الحفلُ الماجن لسنوات الستينات والسبعينات المجالَ لنخبةٍ حركية ومحبطة *désenchantée*، لكن لا : فهذه النخبة، على الأقل في الدعاية التي تصنعها عن نفسها، ترى نفسها حركية ومبتهجة *enchantée*. وهذا الابتهاج مسترخ : فهي نشيطة دون كدح، سواء في الأعمال، أو السياسة، أو المعلوماتية، وتقدم نفسها على أنها فعالة باسترخاء. و يمكن أن يكون شعارها :

YOU CAN'T HAVE YOUR MONEY AND SPEND IT TOO !

YOU CAN'T HAVE YOUR CAKE AND EAT IT TOO !

YOU CAN'T EAT YOUR WIFE AND FUCK IT TOO !

YOU CAN'T LIVE AND HAVE YOUR LIVING TOO !

*

لكن سهولة الحياة هذه لا ترحم. ومنطقها لا يرحم. إذا كانت اليوتوبيا قد تحققت، فلا وجود للتعاسة، ولم يعد الفقراء قابليين للتصديق. إذا كان قد تم إحياء أمريكا، فمذبحة الهنود لم تحدث إذن، وفيتنام لم تحدث. أثناء زيارات ريجان للمزارعين أو المنتجين في الغرب، لم يخطر بباله أبدا أن الفقراء موجودون ولم يحتك بهم. لم يعرف سوى بداهة الثروة، تحصيل حاصل القوة، التي يوسّع مداها لتشمل كل الأمة، بل والعالم بأسره. ستحلّ بالمعدمين لعنة النسيان، والإهمال،

والاختفاء ببساطة. هذا هو منطق خروج إجبارى *must exit*. خروج إجبارى للفقراء. والإنذار الذى توجهه الثروة، والكفاءة، يمحوهم من الخريطة. عن حقٍ تاماً، إذ يبلغ بهم الذوق السقيم حد الخروج على الإجماع العام.

الفقر الذى كان يجرى تخفيفه الى وقت قريب، الذى كان يجرى إبقاؤه ضمن مدار التأهيل الاجتماعى المدعوم، يقع الآن ضمن نطاق المرسوم الإلهى (الرئاسى). فكان يوم الحساب الأخير قد وقع فعلاً. الأخيار حُكم عليهم بأنهم أخيار، وتم إبعاد الآخرين. هذه نهاية النية الحسنة، ونهاية تأنيب الضمير. تم محو العالم الثالث، غير مأسوف عليه. فلم يولد سوى تأنيب الضمير للأغنياء، وكل الجهود لإنقاذه كان مقدرًا لها الفشل. انتهى كل هذا. يحيا العالم الرابع، الذى يمكن أن تقول عنه: "اليوتوبيا قد تحققت، فليختف من ليسوا جزءاً منها"، من لم يعد لهم الحق فى الظهور على السطح، المحرومون من حقوقهم *disenfranchised*، المجردون من الحق فى الكلام، المحكوم عليهم بالنسيان، المنبذون ليلقوا حتفهم فى موت من الدرجة الثانية.

Disenfranchising.

يفقد المرء حقوقه الواحد تلو الآخر، العمل، ثم السيارة. ومع إلغاء رخصة القيادة *driver's licence*، تُلغى الهوية. وهكذا تسقط قطاعات كاملة من السكان فى النسيان، فى الإهمال التام. كان التحرير *affranchissement* حدثاً تاريخياً : كان إعتاق العبيد والأقنان، ونزع استعمار العالم الثالث، وفى مجتمعاتنا، مختلف الحقوق : حقوق العمل، والتصويت، والجنس، والنساء، والسجناء، والمثليين – المكتسبة فى كل مكان اليوم. تم اكتساب الحقوق فى كل مكان. من المفترض أن العالم قد تحرر، ولم يبق ما يمكن المحاربة من أجله. ورغم ذلك، تتصحر مجموعات اجتماعية كاملة من الداخل (وأفراد كذلك). ينساهم المجتمع، وها هم ينسون أنفسهم. يسقطون خارج المجال، كائنات زومبي محكوم عليها بالانمحاء وبالمنحنيات الإحصائية للأنواع المهدة بالانقراض. هذا هو العالم الرابع. قطاعات كاملة من مجتمعاتنا الحديثة، وبلاذ كاملة من العالم الثالث تسقط فى هذه المنطقة المتصحرة للعالم الرابع. لكن بينما كان لا يزال للعالم الثالث معنى سياسى (حتى لو كان إخفاً عالمياً مدوياً)، فليس للعالم الرابع مثل هذا المعنى. إنه متجاوز للسياسة. إنه محصلة اللامبالاة السياسية لمجتمعاتنا، محصلة اللامبالاة الاجتماعية لمجتمعاتنا المتقدمة، للحرمان *excommunication* الذى يصيب بالضبط مجتمعاتنا القائمة على الاتصال *communication*. ويصدق هذا على مستوى العالم. ولا يمكن مقارنته إلاً بآلاف الأطنان من البن الذى تم حرقه فى قاطرات السكك الحديدية للحفاظ على سعره العالمى. أو بتلك الجماعات الفائضة عن الحاجة فى القبائل البدائية، التى يقودها نبى الى الضياع، مثل الفران، صوب أفق المحيط حيث تختفى. سياسات الدول تصبح هى ذاتها سلبية. فلم تعد تستهدف التأهيل الاجتماعى، أو الإدماج، أو خلق حقوق جديدة. فخلف مظهر التأهيل الاجتماعى والمشاركة، تقوم بنزع الطابع الاجتماعى، ونزع الحقوق، والنبد. يتعاقد النظام الاجتماعى ليشمل فقط التبادلات الاقتصادية، والتكنولوجيات، والجماعات المتميزة، وبتكثيف هذه القطاعات، فإنه ينزع كثافة مناطق بكاملها، تتحول الى معازل، وقد لا تبلغ حد المعازل : تتحول الى مقالب نفايات، الى أراضٍ خراب، الى صحراوات جديدة للفقراء الجدد، مثل الأراضى التى يراها المرء تتصحر حول محطات الطاقة النووية أو حول الطرق. لن يتم عمل شئ لإنقاذها

وربما لا يمكن عمل شيء، لأن عمليات منح الحقوق، والإعتاق، والتوسع، قد حدثت فعلا. وبالتالي، ليس ثمة وجود هنا لعناصر ثورة مستقبلية، بل إنها النتائج التي لامهرب منها للحفل الماجن للقوة، ولتركز لا رجعة فيه للعالم في أعقاب توسعه. والسؤال الوحيد هو: ما الوضع الذي سينتج عن هذا النزاع المتزايد للحقوق (الذي يتخذ بالفعل منعطفًا عنيفًا، تحت حكم ريجان وثنائش)؟.

*

تثير شعبية ريجان التساؤل. لكن يجب أولاً أن نحدد نوع الثقة الممنوحة له. فهي أفضل من أن تكون حقيقية: إذ كيف يتأتى أن تسقط أمامه كل الدفاعات؟ كيف يتأتى ألا تُنقص من رصيده أى خطوة خاطئة، ولا أى نكسة، بل تقويه على نحو متناقض؟ (مما يثير سخط زعمائنا الفرنسيين، الذين تمضى الأمور بالنسبة لهم على النقيض: فبقدر ما يُظهرون من مبادرة ومن حسن نية، بقدر ما تنخفض شعبيتهم). لكن المسألة بالضبط أن الثقة الممنوحة لريجان هي **ثقة متناقضة** *paradoxe*. ومثلما نميز بين النوم الحقيقى والنوم المتناقض، يجب أن نميز بين الثقة الحقيقية والثقة المتناقضة. الأولى تُمنح لرجل أو لرئيس على أساس مزاياه ونجاحه. أما الثقة المتناقضة فهي تلك التى تُمنح لشخص على أساس إخفاقه أو افتقاره إلى المزايا. والنموذج الأصلي لها هو إخفاق النبوءة، وهى عملية معروفة فى تاريخ الحركات الخلاصية والألفية، نجد فى أعقابها أن المجموعة، بدل أن تتذكر لزعيمها وتتفرق، تضم صفوفها حوله وتقيم مؤسسات دينية، أو طائفية، أو إكليروسية، لدعم الإيمان. وتكون هذه المؤسسات أشد صلابة بقدر ما تستمد طاقتها من إخفاق النبوءة. هذه الثقة "المشددة" *surajoutée* لا تنزعزع أبداً إذن، لأنها تأتى من التصلب من الإخفاق. هذا هو، مع حفظ التناسب، الجو المذهل الذى يلف مصداقية ريجان، والذى يدفعنا إلى الاعتقاد بأن النبوءة الأمريكية، المنظور العظيم لليوتوبيا المتحققة، مقترنا بالقوة العالمية، قد منى بالإخفاق، بأن شيئاً من هذه المأثرة الخيالية التى كان يجب أن تتوَّج قرنين من التاريخ لم يتحقق بالضبط، وأن ريجان هو محصلة فشل هذه النبوءة. مع ريجان، يتحول نسق من القيم كان من قبل فعالاً ليصبح مثالياً وخيالياً. صورة أمريكا هى التى تصبح خيالية بالنسبة للأمريكيين أنفسهم، فيما هى مُهددةٌ بعمقٍ بلا شك. هذا التحول لثقة عفوية إلى ثقة متناقضة، وليوتوبيا متحققة إلى مبالغة خيالية، يبدو لى انعطافاً حاسماً. لكن لا شك أن الأشياء ليست بهذه البساطة. أنا لا أقول أن صورة أمريكا قد تغيرت بعمق فى عيون الأمريكيين أنفسهم. لا أقول أن هذا الانعطاف للحقبة الريجانية يختلف عن كونه تطوراً عارضاً. *Who knows*. فالصعوبة التى تواجهنا فى الفصل فى ذلك هى ذاتها التى تواجهنا اليوم فى التمييز بين صيرورة ما وبين مشابهة صيرورة، بين تحليق وبين مشابهة تحليق. فأمريكا قد دخلت بدورها حقبة عدم التحدُّد هذه: هل مازالت قوة حقيقية أم أنها مشابهة للقوة؟

هل يمكن اعتبار ريجان رمزاً للمجتمع الأمريكى الراهن – وهو مجتمع، بعد أن امتلك السمات الأصلية للقوة، ربما كان الآن فى مرحلة شدِّ الوجه؟ وثمة فرضية أخرى: أن أمريكا لم تعد كما كانت، لكنها تواصل مسارها، وقد دخلت فى مرحلة تباطؤ *hystérésie* القوة. والتباطؤ: هو صيرورة ما يواصل التطور بالقصور الذاتى، صيرورة التأثير الذى يستمر بعد اختفاء السبب. هكذا يمكن الحديث عن تباطؤ للتاريخ، عن تباطؤ للاستراتيجية، إلى آخره. يتواصل الأمر مثل

جسد يتحرك، بفعل السرعة التى اكتسبها، أو بفضل توجيه القصور الذاتى، أو مثلما يظل رجل غائبٌ عن الوعي واقفاً على قدميه بفعل قوة التوازن. أو، على نحو أكثر كوميديّة: مثل متسابقى الدراجات فى عمل جارى Jarry بعنوان *النّكر الفائق Surmâle*، الذين ماتوا من الإرهاق خلال الرحلة الهائلة عبر سيبيريا، لكنهم يواصلون تحريك البدال ودفع الآلة الكبرى، محوّلين تخشّب الجثث الى قوةٍ دافعة. قصة رائعة: فالموتى ربما كانوا قادرين حتى على المضى أسرع، على إدارة الآلة أفضل من الأحياء، فلم تعد لديهم مشكلة. هل تكون أمريكا مثل فريق ألفريد جارى؟ لكن هنا أيضاً، لو بدا واضحاً أن الآلة الأمريكية قد عانت من انقطاع للتيار، أو من انقطاع للسحر، فمن يستطيع القول إن كان ذلك راجعاً الى وهن *dépression*، أو الى تبريد *surfusion* للآليات؟

من المؤكد أن أمريكا تعاني أقل من أوروبا من مرحلة النقاهاة التى تمر بها الأفكار الكبرى ومن النفور من المشاعر التاريخية، فلا تكمن هنا القوة المحركة لتطورها. وما تعاني منه بالمقابل، هو تلاشى الإيديولوجيات التى تتحداها، وضعف كل القوى التى عارضتها. وإذا كانت أقوى خلال العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية، فقد كانت الأفكار والمشاعر التى تشجبها أقوى بدورها. كان يمكن مهاجمة النظام الأمريكى بعنف (حتى من الداخل خلال أعوام الستينات والسبعينات). واليوم، لم تعد أمريكا تتمتع بنفس الهيمنة ولم تعد تمارس نفس الاحتكار، لكنها على نحو ما لا تلقى التحدى، وليست قابلة للتحدى. كانت قوة [عالمية]، وتحولت الى نموذج (للأعمال، والسوق، والمبادرة الحرة، والأداء) مُعمّم حتى فى الصين. أصبح الأسلوب الدولى أمريكياً. لم تعد ثمة معارضة حقيقية لها، وتم من جديد استيعاب الهوامش العدائية (الصين، وكوبا، وفيتنام)، كما تم إفراغ الإيديولوجيا الكبرى المناهضة للرأسمالية من مضمونها. ومع أخذ كل شىء فى الحسبان، يتشكل حول الولايات المتحدة، فى العالم، نفس تأثير الإجماع الذى ينشأ حول ريجان داخل الولايات المتحدة. تأثيرٌ مصداقية، تأثيرٌ دعاية، و فقدانٌ للدفاعات لدى أى خصم محتمل. على هذا النحو تجرى الأمور بالنسبة لريجان: رويدا رويدا لم يعد ثمة شىء يعارضه، أو يواجهه، دون أن نستطيع ان ننسب إليه أية عبقرية سياسية خاصة به. إجماع عن طريق الأسراف، عن طريق حذف العناصر المعارضة والهامشية. انحطاط سياسى وصعود إعلانى. والشىء ذاته بالنسبة للولايات المتحدة على نطاق الكوكب. لا يبدو أن القوة الأمريكية تستلهم عبقرية خاصة بها (فهى تعمل بالقصور الذاتى، فى كل موضوع على حدة، فى الفراغ، تعوقها قوتها ذاتها) – وفى المقابل، تنخرط أمريكا فى نوع من الوميض الخاطف، من المبالغة الإعلانية. هناك ما يشبه القوة الأسطورية والإعلانية لأمريكا عبر العالم، تعادل الاستقطاب الإعلانى حول ريجان. على هذا النحو، عن طريق هذا النوع من القيمة المضافة، من المصداقية الأسية، التى تحيل الى ذاتها وليس لها أساس حقيقى، يصبح مجتمعٌ بأكمله مستقراً تحت وابل إعلانى. وتدفق الدولار على أسواق العالم هو رمز ذلك وأفضل مثال عليه.

إلا أنه ميتا-استقرار هش، سواء على المستوى الخارجى أو على مستوى السياسة الداخلية. لأنه فى نهاية المطاف لا يرجع إلا الى زوال كل بديل حقيقى، الى تلاشى المقاومات والأجسام المضادة. هنا تكمن الأزمة الحقيقية للقوة الأمريكية، أزمة الاستقرار المحتمل بالقصور الذاتى، أزمة تولى القوة فى الفراغ. وهى تشبه من نواح عديدة فقدان دفاعات المناعة فى كيان عضوى خاضع لحماية مفرطة. ولهذا السبب يبدو لى أن ثمة مفارقة شعرية فى إصابة ريجان

بالسرطان. فصورة السرطان تشبه بعض الشيء هذه المصادقية الشفافة، هذه النشوة لجسد لم يعد ينتج أجساما مضادة، ويتهدد الدمار لفرط وظيفيته. زعيم القوة الأعظم ينال منه السرطان ! السلطة فى قبضة الانتشار السرطانى ! هنا يلتقى قطبا حضارتنا. نزع الحصانة الرئاسية. الإيدز فى المرة القادمة ! لابد أن يشير هذا الى بداية الانهيار العام implosion (فى الشرق كانت السلطة منذ زمن طويل فى قبضة الموت الموضعى للأنسجة nécrose).

*

لكننا نمضى أسرع مما يجب، وربما كان من الأفضل الحديث عن سن اليأس ménopause. انحسار الحمى فى العقل العام، إعادة التمرکز العامة بعد اختلاجات أعوام السبعينات، نهاية كل "حدود جديدة"، الإدارة المحافظة والإعلانية للأمور، الأدائية فى أسوأ حالاتها، دون النظر الى المستقبل، التقشف والتدريب البدنى، البيزنس والجرى، نهاية الدوامة المجنونة defonce والحفل الماجن، استعادة نوع من اليوتوبيا الطبيعية للمشروع و الحفاظ البيو-سوسولوجى على الجنس – ألا يعنى هذا كله نهاية لمعان القوة والدخول الى النشوة الهستيرية لسن اليأس؟ أو، مرة أخرى، هل مرحلة ريجان مجرد فترة نقاهة مؤقتة، إحياء revival بعد انهيار، لكنها تؤذن بالمزيد من التطورات؟ إلا أن كل "حدود جديدة"، كل "فلسفة كنيدي" جديدة، تبدو اليوم غير قابلة للتفكير فيها. هذا بالضبط ما تغير بعمق فى روح العصر الأمريكية : فقد استنفدت تأثير ريجان طاقة الأمة.

وإذ قلنا هذا، فإن تأثير سن اليأس ليس قاصرا على أمريكا، فهو محسوس فى كل الديموقراطيات الغربية، ويعيثُ فسادا فى كل مكان، فى الثقافة مثلما فى السياسة، وفى المشاعر الفردية مثلما فى العواطف الإيديولوجية. وكل ما يمكن أن نأمله أن يترافق عبورنا الى مرحلة الشيخوخة مع لقاءات من النوع الثالث (وللأسف ! فقد عرفنا بالفعل نزوة منتصف العمر، التى هى الفاشية). أما بالنسبة للواقع الأمريكى، فإنه يحتفظ، حتى بعد شد الوجه، بمدى ضخم، باتساعٍ مفرطٍ، وبهمجيةٍ على حالها، فى نفس الوقت. ينتهى الأمر بكل المجتمعات الى أن ترتدى قناعا ، فلم لا يكون قناع ريجان؟ لكن ما يظل على حاله، هو ما كان موجودا فى البداية : الفضاء و عبقرية الاختلاق fiction.

** **

DESERT FOR EVER

غروباً الشمس أقواس قزح عملاقة تدوم ساعة كاملة. ليس للفصول معنى هنا : ففي الصباح، ربيع، وعند الظهر، صيف، وليالى الصحراء باردة لا تصل أبدا الى حد الشتاء. إنها نوع من الأبدية المعلقة يتجدد فيها العام كل يوم. مع اليقين بأنها ستكون هكذا كل يوم، بأن فى كل مساء سيكون ثمة هذا القوس قزح بكل ألوان الطيف حيث الضوء، بعد أن ساد طوال النهار فى حالته التى لا تتجزأ، يتحلل فى المساء الى كل درجات الألوان التى تكونه، قبل أن يتلاشى. درجات ألوان هى درجات القوس قزح اللحظى الذى يشتعل فى الريح فوق ذرى أمواج المحيط الباسيفيكي.

تلك هى الأناقة المنيعة للمناخ، امتياز طبيعة تُكملُ الثراء المجنون للبشر.

*

هذا البلد بلا أمل. فحتى النفايات فيه نظيفة، والتجارة منزقة ، والمرور سلس. الكامن، والحليبي، والقاتل Le latent, le laiteux, le léthal – سيولة للحياة، سيولة للعلامات والرسائل، تدفق للأجساد والعربات، شقرة للشعر وبذخ للتكنولوجيات الناعمة، تجعل كلها الأوروبى يحلم بالموت والقتل، بموتيلات المنتحرين، بالحفل الماجن وبأكل لحوم البشر، orgy and cannibalism لإحباط كمال المحيط، والضوء، ذاك، هذه السهولة المجنونة للحياة، لإحباط الواقع-المفرط لكل الأشياء هنا.

*

من هنا استيهامُ حدوثِ تصدعِ زلزالي و انهيارٍ فى الباسيفيكي، يضع نهاية لكاليفورنيا ولجمالها الإجرامى والفضائحي. فليس من المحتمل، ما دمنا على قيد الحياة، أن نعبر الى ما وراء صعوبة الوجود، الى السيولة الفريدة للسماء ، لمنحدرات الشاطئ الصخرية، للأمواج المتكسرة، للصحارى، الى فرضية السعادة وحدها.

*

لكن حتى تحدى الزلازل ليس سوى غزل مع الموت، وما زال يشكل جزءاً من أوجه الجمال الطبيعي، مثلما يفعل التاريخ أو النظرية الثورية، اللذان يصل صداهما الفائق للطبيعة ليموت هنا بالسر الخفى لحياة سابقة. وكل ما يتبقى من مطلب عنيف وتاريخي هو هذا الشعار الجداري على الشاطئ، فى مواجهة المحيط ، الذى لم يعد يناشد الجماهير الثورية، بل السماء واتساع المحيط وآلهة الباسيفيكي الشفافة :

PLEASE, REVOLUTION !

*

لكن، ألا يثير الاهتمام أن تكون أكبر قاعدة بحرية، قاعدة الأسطول السابع الباسيفيكي، التجسيد الحى للسيطرة العالمية الأمريكية وأكبر قوة نيران فى العالم، جزءاً من هذا الجمال الوقح؟ فى نفس المكان الذى يهب فيه سحر سانتا أنا البالغ العذوبة، ريح الصحراء التى تعبر الجبال لتبقى أربعة أو خمسة أيام، قبل أن تشتت الضباب، وتكوى الأرض، وتجعل البحر يطق بالشرر، وتسحق من تعودوا على الشبورة – وأجمل ما فى سانتا أنا، هو قضاء الليل على البلاج، السباحة كأنما فى عز النهار، واكتساب السمرة، مثل مصاصى الدماء، على ضوء القمر.

*

هذا البلد بلا أمل.

*

بالنسبة لنا نحن المتعصبون للجمالى وللمعنى، للثقافة، والمذاق والإغواء، نحن الذين لا يعد جميلاً بالنسبة لنا سوى ما هو أخلاقى بعمق، ولا يثير مشاعرنا سوى التمييز البطولى بين الطبيعة وبين الثقافة، نحن المرتبطون دوماً بسحر الحس النقدي والتسامي، نواجه صدمة عقلية و انفلاتاً خارقاً فى اكتشاف انبهار اللامعنى، فى هذا الانفصال المؤخ، المتسيّد فى الصحارى مثلما فى المدن. اكتشاف أن بإمكان المرء أن ينتشى بتصفية كل ثقافة وأن يبتهج بتكريس اللامبالاة.

*

أتحدث عن الصحراوات الأمريكية وعن المدن التى ليست مدناً... لا واحات، ولا نُصب تذكارية ، بل لقطات واسعة لانتهائية لمناظر الجمادات والطرق السريعة. فى كل مكان : فى لوس

أنجلوس أو توينتى ناين بالمرزTwenty-Nine Palms، فى لاس فيجاس أو بورريجو سبرينجز
Borrego Springs . . *

لا رغبة : الصحراء. الرغبة ما زالت طبيعيةً بشكل عميق، ونحن نحيا على بقاياها فى أوروبا،
وعلى بقايا ثقافة نقدية محتضرة. أما هنا فالمدن صحراوات متحركة. لا نُصبُ تذكارية، ولا
تاريخ : بل تمجيدُ الصحراوات المتحركة والمشباهة. ونفس الهمجية فى المدن التى لا تنتهى،
ولا تبالي وفى السكون الذى لم يُمس لبلاداندز Badlands. لماذا تكون لوس آنجلوس ، وتكون
الصحراوات بهذا الإبهار؟ لأنها تخلصت من كل عمق – حياديةً براقة، متحركة، وسطحية،
تحدُّ للمعنى وللعمق، تحدُّ للطبيعة وللثقافة، فضاءً-مفرط خارجي، دون أصل، ودون نقاطٍ
مرجعية.

لا سحر، لا إغواء فى هذا كله. الإغواء فى مكان آخر، فى إيطاليا، فى مناظر خلوية معينة
أصبحت لوحات، تنقفت وتهذبت فى تصميمها مثل المدن والمتاحف التى تضمها. فضاءاتٍ
مطوّقة، مُصمّمة، بالغة الإغواء، حيث المعنى، عند هذه النقطة من البذخ، قد تحوّل فى النهاية
الى حلية. والعكس تماما هنا : لا إغواء، بل انبهارٌ مطلق، هو نفس انبهار تلاشى كل شكل نقدى
وجمالى للحياة، فى اشعاع حيادية بلا موضوع. محايدةً وشمسية. انبهارُ الصحراء : السكون بلا
رغبة. انبهار لوس آنجلوس : مرورٌ مجنون ودون رغبة. نهاية الجماليات.

ما يتبخر فى الهواء ليس جماليات الديكور فحسب (جماليات الطبيعة أو العمارة)، بل جماليات
الأجساد واللغة، جماليات كل ما يصنع الهاييتوس(1) l'habitus العقلى والاجتماعى للأوروبى،
اللاتينى خصوصا، هذه الكوميديا ديللارتي *commedia dell'arte* المتصلة، روح وبلاغة
العلاقات الاجتماعية، إضفاء الطابع الدرامى على الكلام، مراوغات اللغة، هالة الماكياج
والإيماءات المصطنعة. كل السحر الجمالى والبلاغى للإغواء، للذوق، للسحر، للمسرح، لكن
كذلك للتناقض، والعنف، الذى يعاد تملكه دائما بواسطة الخطاب، واللعب، والمسافة، والتصنع.
عالمنا ليس صحراويا أبدا، بل مسرحيٌّ على الدوام. دائما ملتبسٌ، ودائما ثقافيٌّ، ومثيرٌ للسخرية
بعض الشيء فى ثقافته culturalité الموروثة .

المدّش هنا هو غياب هذا كله، سواءً غيابُ العمارة فى المدن، التى لاتعدو كونها لقطاتٍ واسعة
طويلة من العلامات، أو الغيابُ المُدوّخ للعاطفة و الشخصية فى الوجوه والأجساد. الرشيقية،
المناسبة، اللدنة أو اللطيفة *cool*، أو البدنية على نحو غريب، الأقل ارتباطا بلا شك بمرض
البوليميا (2) *boulimie* القهرى منها بتشوشٍ عام، يبلغ مداه فى تراخٍ فى الأجساد أو اللغة، فى

الغذاء أو فى المدينة : شبكة فضفاضة من الوظائف الدقيقة والمنتالية، نسيجاً من الخلايا المتضخمة والمنتشرة فى كل الاتجاهات.

*

وهكذا فإن نسيج المدينة الوحيد هو نسيج الطرق السريعة *freeways*، نسيج ناقل، أو بالأحرى نسيج عبر-حضرى لا يتوقف، مشهد خارق لتلك الآلاف من السيارات التى تتحرك بنفس السرعة، فى كلا الاتجاهين، وكل مصابيحها مضاءة فى وضوح النهار، على طريق فينتورا السريع، قادمة من لا مكان، وذاهبة الى لا مكان : فعل جماعى هائل، تدرج، وانتشار بلا توقف، وبلا عدوانية، وبلا هدف – روح اجتماعية إزاحية، هى الوحيدة دون شك فى حقبة تكنولوجية واقعية-مفرطة، حقبة حركية-ناعمة *soft-mobile*، تستنفذ ذاتها فى الأسطح، والشبكات، والتكنولوجيات اللينة.

*

ما من مصاعد ولا مترو فى لوس أنجلوس. لا رأسية ولا انفاق، لا حميمية ولا جماعية، لا شوارع ولا واجهات، لا مركز ولا نُصْب تذكارية : فضاء فانتازى، تتابع شبحى ومتقطع لكل الوظائف المبعثرة، لكل العلامات دون تراتبية – مشهد خارق للآتمايز، للأسطح اللامتمايزة – قوة الاتساع الخالص، التى يجدها المرء فى الصحارى. قوة الشكل الصحراوى : إنه انمحاء الآثار فى الصحراء ، انمحاء مدلول العلامات فى المدن، وانمحاء كل سيكولوجيا فى الأجساد. انبهار حيوانى وميتافيزيقى : انبهار مباشر، بالاتساع؛ وانبهار، محايث ، بالجفاف والعقم.

*

تكمّن القوة الأسطورية لكاليفورنيا فى هذا الخليط من الانفصال الحدى والحركية المدوّخة المدركة فى الموقع، فى السيناريو الواقعى-المفرط للصحارى، والطرق السريعة، للمحيط والشمس. لا يوجد فى أى مكان آخر هذا المزيج الباهر من انعدام الثقافة الجذرى ومثل هذا الجمال الطبيعى، من المعجزة الطبيعية والشبيه المطلق : *just in this mixture of extreme irreferentiality and disconnection overall, but embedded in most primeval and greatfeatured natural scenery of deserts and ocean and sun – nowhere else is this antagonistic climax to be found.*

[فقط فى هذا المزيج من اللامرعية الحدية والانفصال الكلى، لكن على قاعدة أكثر المناظر الطبيعية بدنية وضخامة للصحارى والمحيط والشمس – ما من مكان آخر يمكن العثور فيه على هذه الذروة التناحرية]

*

فى الأماكن الأخرى، تكون مواقع الجمال الطبيعى مثقلة بالمعنى، بالحنين، وتكون الثقافة ذاتها غير محتلمة فى رصانتها. الثقافات القوية (المكسيك، واليابان، والإسلام) تعكس لنا صورة

ثقافتنا المنحطة، وصورة احساسنا العميق بالذنب. إن فائض المعنى لثقافة قوية، طقسية، إقليمية، يجعل منا كائنات جرينجو، أو زومبي، أو سُباحاً تحت الإقامة الجبرية فى مواقع الجمال الطبيعى للبلد.

*

لا شىء من هذا فى كاليفورنيا، حيث الصرامة مطلقة، لأن الثقافة ذاتها صحراء – ولا بد أن تكون الثقافة صحراء كى تتعادل كل الأشياء وتلمع بنفس الشكل المفارق للطبيعة.

*

لهذا السبب فإن نفس رحلة الطيران من لندن الى لوس أنجلوس، مروراً بالقطب [الشمالى]، فى تجريدها الستراتوسفيرى (3)، وكذلك فى واقعيتها-المفرطة، تشكل بالفعل جزءاً من كاليفورنيا ومن الصحراوات. نزع التوطن يبدأ بانفصال الليل والنهار. حين لا يعود تقسيمهما مسألة زمن بل مسألة فضاء، مسألة ارتفاع وسرعة، ويجرى بشكل دقيق، كأنما رأسياً – حين تعبر الليل كأنه سحابة، بسرعة يبلغ منها أن تعطيك الانطباع بأنه شىء قريب يدور حول الأرض، أو على النقيض، حين يتلاشى تماماً، وتظل الشمس فى نفس النقطة من السماء طوال ساعات الرحلة الأثنى عشر، هذه بالفعل نهاية الزمان-المكان الخاص بنا، وهى نفس المشهد الخارق الذى سيصبح مشهد الغرب الأمريكى.

*

أعجوبة الحرارة هناك ميتافيزيقية. والألوان ذاتها، الأزرق الباستيل، والبنفسجى، والأرجوانى، هى نواتج احتراق بطيء، جيولوجى، لا زمنى. فلزياً باطن الأرض تخرج الى السطح فى نباتات بلورية. كل العناصر الطبيعية مرت باختبار النار. لم تعد الصحراء منظراً خلويًا، فهى الشكل الخالص الناتج عن تجريد كل الاشكال الأخرى.

**

تعريفها مطلق، وحدودها تكريسية *initiatique*، قممها منحدره وتضاريسها قاسية. إنها موضع علامات ضرورة قاهرة، ضرورة محتومة، لكنها علامات خالية من المعنى، تعسفية ولاإنسانية، يعبرها المرء دون أن يفك شفرتها. شفافية لا رجعة فيها. مدن الصحراء أيضاً تنتهى بغتة، ليس لها أطراف. ولها طابع السراب، الذى يمكن أن يختفى فى أى لحظة. يكفىك أن ترى لاس فيجاس، لاس فيجاس المتسامية، تبرز بأكملها من الصحراء، غارقة فى أضوائها المتلائة، عند سقوط الليل، وتعود، بعد أن استنفدت طاقتها الكثيفة السطحية طوال الليل، أشد كثافة لا تزال عند انبلاج الفجر، لترجع الى الصحراء حين يطلع النهار، كى تدرك سر الصحراء وعلاماتها: انقطاع *discontinuité* خلاب، إشعاع كلى ومتقطع.

*

القراية السرية بين القمار وبين الصحراء : كثافة اللعب يضاعفها حضور الصحراء على حافة المدينة. الانتعاش المكيف الهواء لقاعات القمار فى مقابل الحرارة التى تضوى فى الخارج. تحدّى كل الأضواء الصناعية لعنف ضوء الشمس. ليل القمار المشمس من كل جانب، هذا هو الغموض المتألىء لقاعات اللعب فى قلب الصحراء. والقمار نفسه شكلاً صحراوى، لا إنسانى، غير مهذب، استهلالى، تحدٍ للاقتصاد الطبيعى للقيمة، جنون على حافة التبادل. لكن له حدٌ صارم هو أيضاً ، ويتوقف يغتةً، تخومه دققة، وعاطفته لا تعرف التشوش. لا الصحراء ولا القمار فضاءات مفتوحة : فضاءاتهما متناهية، مشتركة المركز، تتزايد كثافتها باتجاه الداخل، باتجاه نقطة محورية : هى روح اللعب أو قلب الصحراء – فضاءٌ أثير، فضاءٌ غابرٌ تفقد فيه الأشياء ظلالها، وتفقد فيه النقود قيمتها، وتفقد فيه الندرة الفائقة للآثار وللعلامات البشر إلى البحث عن فورية الثروة.

**** ** ***

الهوامش:

(الهوامش على طول الكتاب من وضع المترجم)

• VANISHING POINT [نقطة الزوال]

** تحذير: الأشياء في هذه المرأة قد تكون أقرب مما تبدو !

1. Chicanos: المكسيكيون الذين ضمت الولايات المتحدة أراضيهم أو المقيمون في الولايات المتحدة.
2. Humeurs: الأخلاط الأربعة (الدم والبلغم والصفراء والسوداء) التي قال القدماء أنها تحدد مزاج المرء وصحته.
3. موضوع هنا في مقابل الذات.
4. يتعلّق بالبدء والاستهلال وكذلك بطقوس الانضمام الى جمعية دينية سرية.
5. viscérale: نسبة الى الأحشاء.
6. يوسميت هي محمية طبيعية في السييرا نيفادا بكاليفورنيا بها جبال جرانيت شاهقة ذات انحدارات رأسية.
7. Funky: فنكى هو نوع من الموسيقى الزنجية الأمريكية التي تجمع بين موسيقى الصول وموسيقى الديسكو. الحزين أو الباعث على الكآبة أو السوداوية مثل المزاج الذي ينشأ عن هذه الموسيقى.
8. غداً هو أول أيام بقية حياتك.

نيويورك

1. نسبة الى هنود الشايين Cheyenne.

2. art déco : الفن الزخرفى الذى ساد عند بداية القرن العشرين.
3. فنان عصر النهضة العظيم (1483- 1520).
4. autistique : تشير الى الانفصال عن الواقع الخارجى، الى الحياة الداخلية للفرد المشغول كلياً بعالمه الداخلى. تُعدُّ التوجه المميّز للفصامين.
5. Annapurna : قمة فى جبال الهيمالايا بوسط نيبال.
6. exponentielle : تضاعفى، فى الرياضيات: مقدار مرفوعٌ الى أُسٍّ معين.
7. Indes Galantes : أوبرا-باليه من تأليف راموه Rameau، تتكون من برولوج وأربعة مداخل يُطوّر كلّ منها مؤامرةً غرامية فى جوٍ من جنّيات الشرق وجزر الهند الغربية.

أمريكا الكوكبية

1. المشابهة simulation والشبيه simulacre : من أهم المصطلحات لدى بودريار. والشبيه الزائف فى فلسفة أفلاطون هو النسخة الزائفة ، فى مقابل الجوهر أو الفكرة، هو انعكاسها الأدنى منزلة من التجريد الأصيل الذى نشأت عنه. لكن المنظرين الراهنين يلفتون الانتباه الى الشبيه باعتباره سمة رئيسية للحياة المعاصرة. وأوضح الفيلسوف الفرنسى جيل ديلوز أن الشبيه يطرح للتساؤل نفس مفهوم النسخة الصادقة. وفى كثير من الفن الحديث، لا يحيل الشبيه الى صدق موضوعى، بل إلى شبيه آخر. وقد جعل بودريار مفهوم الشبيه محوريا فى تحليله لمجتمع الاستهلاك ما بعد الحداثى، بشبكات صور الإعلام والإعلان، التى تسبق، فيما يرى، أى واقع يمكن أن يقال أنها تحيل إليه. والمشابهة هى العملية التى يحل بها تمثيلٌ لشيء واقعى محل الشيء ذاته. وأول من استخدم المصطلح بهذا المعنى كان عالم اللغويات الفرنسى ميشيل بيشوه، كى يصف الطريقة التى تتيح بها اللغة تحويل شيء نوعى ومتعين الى شيء كلى ومجرد. ويورد بودريار ، كمثال كلاسيكى على المشابهة، قصة خورخى لويس بورخس التى يرسم فيها رسامو خرائط الامبراطورية خريطة تبلغ من التفصيل حد أن تغطى أراضى الإمبراطورية برمتها، الى درجة أن تتمحى الأرض الحقيقية تحت الخريطة، أو لا تعود ترى إلاّ عند أطرافها الممزقة. وبالنسبة لبودريار ليست المشابهة مجرد نسخة من شيء حقيقى، لأن لها معنى وقوة يفوقان بكثير معنى وقوة الشيء الحقيقى ذاته. ويرى بودريار التاريخ باعتباره سلسلة من أنظمة المشابهة الجديدة، تقود جميعها الى تلاشى أو موت كل معنى.

2. الهولوجرام: صورة ثلاثية الأبعاد يتم الحصول عليها عن طريق تداخل شعاعى ليزر.

3. MOVE : منظمة شكلها فى فيلادلفيا، بولاية بنسلفانيا، جون أفريكا و دونالد جلاسى، عام 1972. معظم أعضائها من السود الذين اتخذوا "أفريكا" لقباً لهم، فى إشارة الى إفريقيا. نادوا بالعودة الى الطبيعة ومناهضة التكنولوجيا. فى عام 1985 ، حاولت شرطة فيلادلفيا تنفيذ أمر بالقبض على الجماعة نتيجة شكوى

- الجيران من تراكم القمامة و الأقدار ، فأسقطت قنبلة فوق سقف البيت الذى تسكنه، وأدى ذلك الى وفاة ستة بالغين وخمسة أطفال محترقين، وامتداد السنة للهب الى المنازل المجاورة.
4. مار سمان العمودى : قديس زاهد من الإمبراطورية البيزنطية. صعد فوق عمود بالقرب من حلب فى سوريا عام 423 ميلادية ولم يهبط منه حتى وفاته بعد ذلك بسبع وثلاثين سنة.
5. الأنوركسيا : فقدان الشهية المرضى.
6. توماس مونزر، أو مونتر: مفكر لاهوتى من فترة الإصلاح المبكرة. مناهض للوثر وللتعميد. أصبح زعيما متمردا خلال حرب الفلاحين فى ألمانيا ضد القمع السياسى والروحى قبل أن يعتقل وتقطع رأسه. نادى بأن تكون كل الأشياء مشاعا للبشر. يعدّ سلفا مبكرا للاهوت التحرير. تبناه الاشتراكيون كرمز للصراع الطبقي الباكر بسبب دعوته الى مجتمع مساواتى جديد يفتسم الناس فيه السلع. أصبح بطلا رمزيا فى ألمانيا الشرقية السابقة.
7. نسبة الى جون كالفين الذى كان أبرز دعاة الإصلاح الثانى فى الكنيسة البروتستانتية فى القرن السادس عشر. وكان معظم المهاجرين الى نيوإنجلند من الكالفيين.
8. المشيخانية أو البرسبيترية: تنتمى الى طوائف الإصلاح الكالفيين ونشأت فى اسكتلندا.
9. وودستوك: مهرجان موسيقى وفنى أقيم فى مزرعة على مساحة 600 فدان بالقرب من نيويورك من 15 الى 18 أغسطس 1969. أصبح رمزا للثقافة المضادة وشعارا لحقبة الهيبى الداعية الى السلام والإخاء وسط حرب فيتنام والصراعات العرقية داخل الولايات المتحدة. شارك فيه 32 من مشاهير الموسيقيين أمام نحو نصف مليون شخص أتوا من جميع أنحاء الولايات المتحدة ومثل حدثا فريدا وأسطوريا.
10. لينى ريفينشتال (1902-2003): راقصة وممثلة ومصورة فوتوغرافية ومخرجة ألمانية شديدة الموهبة ، مؤيدة للنازية وصديقة لهتلر وجوبلز. وصفت بأنها أعظم امرأة مخرجة فى القرن العشرين وتميزت بتجديداتها التقنية والجمالية. أخرجت افلاما دعائية نازية وصورت الألعاب الأولمبية فى برلين عام 1936. ظلت موضوعا للجدل حتى وفاتها بسبب تأييدها للنازية.
11. عبارة آندى وار هول هى: "فى المستقبل، سيصبح كل شخص مشهورا لمدة خمس عشرة دقيقة".
12. راينر بانهام Reyner Banham وليس Rainer Bunham (1922-1988): ناقد معمارى وكاتب اشتهر ببحثه النظرى الذى نشره عام 1960 بعنوان "النظرية والتصميم فى عصر الآلة الأول" وبكتابه عام 1971 بعنوان "لوس أنجلوس: عمارة الإيكولوجيات الأربع".
13. الأعراف limbes: أو اليمبوس، موطن الأرواح التى تحرم من دخول الجنة بسبب ذنب لم تقترفه.

اليوتوبيا المتحققة

1. إيزابيل هوبير: ممثلة فرنسية شهيرة (ولدت عام 1955) ظهرت في بعض أفلام هوليوود الهامة. فازت بجائزة سيزار لأفضل ممثلة عام 1996.
2. Harki : حركى: من العربية "حركة". تطلق على المسلمين الجزائريين الذين خدموا كمساندين للجيش الفرنسى خلال حرب الجزائر من 1954 الى 1962. ويتم أحيانا توسيع الكلمة لتشمل كل الجزائريين المسلمين الذين أيدوا الوجود الفرنسى فى الجزائر خلال الحرب. ومنذ استقلال الجزائر ، استخدمت الكلمة كتحقير داخل الجزائر، أو بين أفراد الجالية الفرنكو- جزائرية لتعادل معنى "المتعاون". وفى فرنسا تستخدم الكلمة لتعنى الفرنسيين المسلمين الذين استوطنوا البلاد منذ 1962 وأبناءهم. وبهذا المعنى تشير "حركى" الآن الى جماعة عرقية ثقافية متميزة هى المسلمين الفرنكو- جزائريين، لتمييزهم عن الفرنسيين من أصل جزائرى.
3. Clochemerle: الإشارة الى رواية بهذا الاسم صدرت عام 1934 للكاتب الساخر جابريل شيفالييه Gabriel Chevallier وتصف انقسام سكان قرية صغيرة فى إقليم بوجوليه بشأن إقامة مبولة فى ميدان القرية.
4. جيم داين (ولد عام 1935): فنان من أعلام فن البوب آرت الأمريكى، يعتبر أحيانا جزءا من حركة الداذا-الجديدة. بدأ العمل فى الستينات، فى تضاد مع المزاج التعبيرى السائد حينها فى نيويورك. انتقل منذ ذلك الحين من رسم الأشياء الى الرسم من الحياة ومن الطبيعة.
5. Jimmy Hendrix :جيمى هندريكس (1942-1970): أحد رموز حركة الهيبى. عازف جيتار، ومغنى، وكاتب أغنيات أمريكى. تربى فى البؤس ليصبح أعظم عازف جيتار فى تاريخ موسيقى الروك. تأثر بموسيقى البلوز والجاز. شارك فى مهرجان وودستوك 1969 ومهرجان أيزل أوف رايت ببريطانيا 1970. فاز بالعديد من الجوائز فى حياته وبعد مماته.
6. La peau de chagrin : رواية للكاتب الفرنسى أونوريه دى بلزاك (1799-1850) يقع أحداثها فى باريس أوائل القرن 19 وتحكى عن شاب يعثر على قطعة جلد سحرية تحقق له كل رغباته، لكنها تنكمش مع تحقق كل رغبة، وتستهلك جزءا من طاقته. تنتمى الى سلسلة الدراسات الفلسفية التى تدرج تحت اسم "الكوميديا الإنسانية".
7. العبارة بالانجليزية فى الأصل.
8. exponentielle: تضاعفى، فى الرياضيات: مقدار مرفوع الى أس معين.

نهاية القوة؟

1. جرينادا: دولة تتكون من جزيرة جرينادا وست جزر أصغر تقع شرقى البحر الكاريبي، شمال شرقى فنزويلا. لايتجاوز عدد سكانها 110 آلاف. استقلت عن بريطانيا عام 1974. فى 19 أكتوبر 1983، وقع انقلاب شيوعى على الحكومة الاشتراكية التى يرأسها موريس بيشوب وتم إعدامه مع عدد من أتباعه. وفى 25 أكتوبر غزت الولايات المتحدة البلاد، بمساعدة جامايكا والدول المشاركة فى نظام الأمن الإقليمى، لاسقاط السلطة الجديدة. أدانت الجمعية العامة للأمم المتحدة الغزو باعتباره "انتهاكا صارخا للقانون الدولى".

2. اليايى Yuppies: إختصار لعبارة Young Upward-mobile professionals وتطلق على التقنى الممثل الذى يحقق صعوده الفردى داخل آلة النظام.

DESERT FOR EVER [صحراء الى الأبد]

1. الهابيتوس: مفهوم صاغه بيير بورديو للتعبير عن انطباع العالم على الذات؛ الطبيعة الفردية المتشكلة اجتماعيا؛ نتاج التمثل الداخلى للضرورة الاجتماعية؛ وباختصار، نسق الاستعدادات التى ينقشها المجتمع فى جسد الفرد نتيجة دخول الفرد الحتمى فى اللعبة الاجتماعية.

2. البوليميا: هى الجوع المرضى الذى يدفع المصابين به الى التهام الطعام.

3. الستراتوسفير stratosphere: هى الطبقة العليا من الغلاف الجوى.

**** ** ***

**** ** ***